الفصل الثالث

◈ النهضة الأدبية في حضرموت ◈

من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت[١]

تمهيد:

لا مندوحة للبحث الذي نتناوله بالدراسة والتحليل عن التمهيد له بمقدمة، وإن صاحبها الإيجاز؛ لندرك بها كنه الأطوار التي اجتازها الأدب الحضرمي من أواخر القرن الجاهلي وصدر الإسلام إلى قيام النهضة الحضرمية الحديثة التي يرجع عهدها إلى عام سنة **١٢٦٢**هـ وهي السنة التي ظهر فيها زعيم حضرموت الكبير السيد ابن شهاب الدين العلوي لارتباط الحديث بعضه بعضًا، ولكي نسد بها تلكم الثغرة العظيمة التي سيكون مداها **١٣** قرنًا إن لم يتجه إليها البحث أولاً بمثل هذه الإلمامة.

ولا غرو إذًا أن نعود بالحديث القهقرى لنمهد بهذه الإلمامة الإجمالية لتاريخ النهضة الأدبية الحضرمية التي ظهرت طلائعها على حضرموت اليوم والتي تبشر بمستقبل زاهر لوطننا العزيز (حضرموت) لاسيما إذا ما سرى إليها وهج من نور الحضارة وغذيت بالأدب الحي والعلوم الفنية واقتبست من نور العصر كل ما يلائم البيئة الحضرمية وحافظت مع ذلك على المقومات الصالحة للبقاء وهي التي ان تراخى عن الاحتفاظ به شعب فمصيره إلى التلاشي والفناء.

وعلى ضوء البحث والعود بالدراسة إلى الماضي البعيد يؤسفنا وأيم الله أن نقرر حقيقة وأن تكن في حد ذاتها ممضة وهي أنه صاحب الأدب

---

(١) مجلة الرابطة العربية، السنة الثانية، المجلد الرابع، الجزء ٨٠، ١٩، شوال ١٣٥٦هـ / ٢٢ديسمبر١٩٣٧،م، ص ٣٤ ـ ٣٥.

الحضرمي غموض في بعض الفترات والمراحل التي اجتازها حتى إنه لم ينبغ فيها شاعر يحق للأدب الحضرمي أن يفاخر به كشاعر سما بالشعر وحلق به في عالم الخيال فابتكر من نفائس المعاني وجواهر الكلم ما يكفل له الخلود والبقاء في عالم الخالدين.

أجل، وإن العقم الذي صاحب حضرموت في بعض الأدوار ليبعث فينا لواعج الذكرى والحيرة في آن واحد ويشتد بنا العجب إذا ما حدثنا التاريخ عن نبوغ عدد من الحضارمة في العلم وقعودهم عن النبوغ في الشعر ونزداد حيرة إذا ما سرد لنا التاريخ مؤلفاتهم العظيمة، وما لهم من السوابق الكبيرة في علو الأخلاق، والهمم العظيمة، والمخاطرة في اقتحام الشدائد، والطموح الذي بوأهم المكانة العالية، وكون لهم المركز العظيم في العالم الإسلامي، حتى كانوا يتسامون في بعد الهمة مع من عناهم حافظ بك إبراهيم بقوله:

أنتم الناس قدوة ومضاء ونهوضًا إلى العلا واعتزاما
أطلعت أرضكم على كل أفق أنجمًا إثر أنجم تترامى
تركب الهول ولا تفادي وتمشي فوق هام الصعاب لا تتحامى

ولئن أصيبت حضرموت بالعقم في بعض الأدوار فقد روى لنا التاريخ عن بعض الأدوار الأخرى شعرًا مهلهل النسيج ضعيف التركيب، فلا يدع أن لا يلقى منا مزيد الاهتمام ولا العناية لبعث من صفحات الأسفار ولئلا يكون لقائليه شعر أولى من أن يكونوا في عداد المتشاعرين.

على أنا لا نريد أن نلقي القول على علاته ونحن بصدد الدراسة الأدبية الحضرمية دون الإشارة إلى ما نعنيه بالعقم. فكم كنا نتمنى أن يكون لوطننا

العزيز شاعر مطبوع على الشعر من الذين تفيض عليهم الشاعرية بالعواطف السامية والشعور الحي الذي يأخذ بمجامع القلوب ويؤثر في شعراء النفس ولا تأثير الصهباء من أمثال العصر الذهبي في الإسلام الذين خلدت أسماؤهم في سجلات التاريخ فكانوا منذ القرون الماضية إلى اليوم رمزًا للأمة العربية في جميع أقطارها ومفخرة من مفاخر الإسلام والتاريخ. وهذا هو ما نعنيه بالعقم في تاريخ الأدب الحضرمي إذ لم نعرف أحدًا من هذا الطراز النابغ في الشعر ممن يمت إلى حضرموت بوشائج النسبة وصلة البلاد.

ولرب قائل يقول: إنه كان لحضرموت شعراء هم ولا شك من الطراز الأول الذي تعنيه بالبحث ولولا الإهمال الذي عرف به الحضارمة والذي أضاع عليهم الكثير من مناقب الفضلاء والأدباء وكبار الزعماء وغيرهم لكنا نتيه بنفثاتهم ونفخر بسمو بيانهم وسمو تفكيرهم.

وأنا على رأي هذا القائل بصدد ما ذكره عن إهمال الحضارمة ولكن في حد محدود ودائرة معلومة. ولا غرو أن نلقي نظرة فيما وصل إلينا من أشعار شعراء الجاهلية وصدر الإسلام وأيامه الذهبية. وهذا بالطبع إنما وصل إلينا عمن نشأوا في أحضان الحضارة الإسلامية في الأقطار العربية الكبرى، فنرى أن هناك استقصاء يكاد يكون بالغًا حد النهاية التي لا مطمح للزيادة عليها فإنهم لم يقتصروا على تدوين أشعار العرب بل دونوا أشعار النساء والموالي المكثرين منهم والمقلين. ولا يخفى ما ذكرنا على من اتصلت ثقافته بتاريخ الآداب العربية في أيام عصورها الذهبية من الناشئة فضلاً عن أكابر الأدباء والمتوسعين في دراسة الآداب العربية.

أجل، وعلى يد أكابر هؤلاء العلماء والمؤلفين تناولنا صحيفة أسماء

الشعراء الحضرميين وعرفنا مقدار الشاعرية الحضرمية وبها خول لنا الحكم على نقص الشاعرية التي نتناولها بالبحث والدراسة التحليلية.

ولايتعدى في نظرنا الشعر الحضرمي في العصر الأول الملكة السليقية التي كانت للعرب فكانوا بها ينظمون الشعر ارتجالاً وبها يقرضون القريض بداهة. أما من شاركهم في السليقة العربية وأربى عليها بسمو التفكير وحلق في عالم الخيال الشعري فهذا هو الذي لازال ولن يزال معينًا لا ينضب للآداب العربية ورمزًا للنبوغ العربي وخليق بالتاريخ أن يسجل له آيات نبوغه.

وقد يكون لحضرموت شعراء لهم من المكانة الأدبية مثل ما لنوابغ شعراء بقية الأقطار العربية وهم إما مكثرون أو مقلون، ولكن ما وصل إلى أيدينا لا يكفي في الدلالة على الحكم بعدادهم من فحول الشعراء أو من دون طبقتهم، ولن نتأخر يومًا ما إذا ما أزيحت الحجب القاتمة عن هذه النظرية عن الرجوع إلى ماهو الحق لأن غايتنا الاهتداء إلى نتيجة علمية يقرها الواقع ويؤيدها التاريخ، لاسيما وأن مئات المؤلفات العظيمة الشأن لا تزال تختفي عن الأعين إذ لم يحاول أحد طباعتها بعد ولا شك أن فيها نورًا يستضاء به في البحث فيما نحن بصدد الكلام عنه.

ولنعُدْ بالحديث إلى أعراض بعض ما يستدل به على مبلغ قوة الأدب الحضرمي أو ضعفه في العصر الأول وما بعده، فقد كدنا أن نخرج عن الموضوع.

فهذا المعمر الحضرمي صوم بن مالك الجاهلي يقول:

إن أمس كلا لا أطاع فربما سقت الكتائب مشرقًا أو مغربا
ولرب كبش كتيبة لاقيته فطعنته حتى أوار الثعلبا
أجررته رمحي فخر لوجهه ما أن يجيب إذا دعا المستصحبا
في فتية من حضرموت أعزة لاينكلون إذا المنادي ثوبا

وهذ حفيد كندة فارس ميسان الكندي الجاهلي يقول:

ومرت بجوف العير وهي حثيثة وقد خلفت بالأمس هجل الفراضم
تخاف من المصلى عدوًا مكشحا ودون بني المصلى هدير ابن ظالم
وما أن بجوف العير من متلذذ مسيرة يوم للمطي الرواسم

فهذان شاعران وكلاهما جاهلي ولم نعرف عنهما شعرًا أكثر مما سقناه هنا، والشاعرية لا تثبت نسبتها لمجرد الاقتدار على قرض الشعر والمساهمة فيه بما لايتجاوز أنامل اليد.

وعدا هذا فليس الأول منها ولا وصف ناقة الثاني أو فرسه ما يكون لنا عن النفس الشعري الحضرمي أكثر مما تجود به السليقة العربية المعاصرة لعصرهما إلا من ناحية واحدة سنعرض لها بالبحث فيما بعد.

(للحديث بقية)

علي باعبود العلوي

زعيم النهضة الأدبية في حضرموت

السيد ابن شهاب العلوي[١]

- ١ -

تمهيد:

لكم كنت حريصًا أشد الحرص على أن أتدرج في البحث من عصر إلى عصر زعيم النهضة الأدبية الحديثة في حضرموت - السيد العلامة الكبير أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوي الحسيني بالعصور التي تقدمته لكي أربط الحاضر بالماضي ربطًا يتلاءم مع البحث لنرسم للقارئ الكريم صورة مكانة وقوة وضعف بالنسبة إلى الأدب العربي العام، وما له من مكانة وقوة وضعف بالنسبة إلى حضرموت وبالنسبة إلى زعيم النهضة الأدبية الحديثة بحضرموت خاصة، لكي يكون البحث في تاريخ أدب الشهاب العلوي أشمل وأجزل فائدة وأعظم مقدارًا. ولكن تشعب الموضوع الذي تفتحت أمامي سبله بعد أن تناولت القلم وحررت ما قد سبق نشره مما لم يخطر لي على بال أصلاً قبل - ومما بقي بذاكرتي وبالي من المواضيع المستجدة والمباحث التي يجدر بالقلم أن يخوض غمارها مما يتفق مع النزعة التي دفعتني للكتابة في تاريخ الأدب الحضرمي كل هذه النواحي هي التي تحدو بي إلى العودة والتقهقر قليلاً أمام المباحث المتشعبة المسالك والرجوع أولاً إلى الغاية المتوخاة من الكتابة - وهي التي أيقظت فيّ العزم لتناول العلم فانصعت إليها وحررت بدافعها المقال الافتتاحي المنشور

(١) مجلة الرابطة العربية، السنة الثانية، المجلد الرابع، الجزء ٩٦، ١٩ صفر ١٣٥٧هـ/ ٢٠ أبريل ١٩٣٨م، ص٣٨-٣٩.

بالرابطة العربية - الغراء- عدد ٨٠ - فلا غرو إذن من الاجتراء بما قد خطه اليراع في تاريخ الأدب الحضرمي في العصر الجاهلي وأول صدر عصر الإسلام.

على أنني أريد الاحتفاظ لنفسي بخط الرجعة فقد يستهويني البحث يومًا ما وأعود إلى متابعة ما قد نشرته تحت عنوان: من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت وقد أعود إلى أحد العصرين الذين اصطلحت على تسميتهما: بعصر العقم وعصر النهضة الصوفية، وقد أشرت إلى أحدهما - ألا وهو عصر العقم في تاريخ الأدب الحضرمي - في بعض مقالاتي المنشورة تحت العنوان المتقدم ذكره.

إتباعًا للمناسبة التي يقتضيها البحث. أما العصر الثاني وهو عصر النهضة الصوفية وتأثر الأدب الحضرمي بها - فلم تسبق لي الإشارة إليه أصلاً.

ولكلا العصرين صلة متينة بالمباحث التي ستناول الكلام عليها الآن وفي المستقبل - ولعصر النهضة الصوفية من الأثر العظيم على أدب زعيم النهضة الأدبية الحضرمية السيد ابن شهاب العلوي خاصة ما لا سبيل إلى نكرانه، أجل لقد كنت حريصًا على استيفاء كلمة التمهيد التي قصدت بها إعطاء القارىء الكريم صورة واضحة عن تاريخ تطور الأدب الحضرمي في جميع عصوره إلى عصر زعيم النهضة الأدبية الحديثة بحضرموت، ولكن تشعب الموضوع كما ذكرت سيحول ما بيني وما بينها مؤقتًا رغم أنها من مكملات البحث الذي أنا بصدد الكلام عليه لا بل إنها من الجزء الذي لا يتجزأ سيما وأن عصر النهضة الصوفية يلتئم البحث في تاريخه مع البحث

الذي يعنيني بالدراسة، فلعصر النهضة الصوفية بأدب زعيم النهضة الأدبية في حضرموت أمتن روابط وأشد الصلات وأحكم الوشائج، والشهاب العلوي متأثر به إلى حد بعيد جدًا. وليس في تأثر زعيم النهضة الصوفية ما يدعو إلى الاستغراب ولا التعجب - لا بل الغرابة كل الغرابة لو لم يتأثر بهما - أو لو لم يتأثر بالبيئة التي أحاطت من أيام صباه وبالوسط الذي نما وترعرع فيه - وهو من عرفنا فقد كان مرهف الحواس رقيق الشعور مصقول الخاطر بالغًا النهاية التي لا مطمح فوقها من الذكاء والفطنة.

وهيهات - لمن كان في ذكاء السيد ابن شهاب العلوي ومن كان في مثل دقة شعوره أن لا يتأثر بالعصر الذي عاش فيه - وهل كان عصر زعيم الأدب الحضرمي بحضرموت إلا عصر ثورة فكرية شملت جميع مرافق الحياة سواء منها الناحية العلمية أو السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية - ولا غرو إذن أن نلمس آثار هذا العصر في أدب زعيم النهضة الأدبية بحضرموت ولسفير هذا الأثر لفتة إن شاء الله تعالى بعد أن نمهد له ما يقضي به الواجب وسأقف بالقلم برهة ما بين معالم الاندلاع الفكري الذي تأججت نيرانه في حضرموت وانبعثت منه لحضرموت حياة لم تعرفها من قبل وإن تكن تعثرت في المشي فيما بعد فكانت النتيجة تتقارب والصفر. ويا هل ترى أن نصل إلى الغاية المرجوة من البحث في تاريخ الانقلاب الفكري الذي شهده عصر السيد ابن شهاب إن لم نمهد بمقدمة عن الانقلاب الذي أحدثه عصر التصوف بحضرموت؟ كلا فلن نصل إلى الغاية المرجوة إلا إذا سلكنا بالبحث المسلك الطبيعي.

(٣) لكن - كيف أنى للتعريج بالقلم لدرس الظاهرة التي أثرها عصر

التصوف في حضرموت وهي متشعبة القول عميقة الاثر في تاريخ حضرموت العلمي والاجتماعي والأخلاقي والأدبي - بل والسياسي والاقتصادي أيضًا. وليس البحث في تاريخ هذه الظاهرة العظيمة الأثر هو دراسة جيل أو جيلين وإنما البحث في تاريخ هذه الظاهرة معناه دراسة سبعة قرون تكاد تكون كاملة - هذا مع غض النظر عن ما يربط عصر النهضة الصوفية من المقدمات والوسائل التي هيأت له فيما بعد الظهور بظهر الاستقلال التام بكل ما في الكلمة عن العصور التي تقدمته فأصبح بحكم الأثر الذي تركه لنا رمزًا للتاريخ في التقسيم كما أنه من ناحية أخرى مصدر وحي فياض للأقلام والباحثين.

(٤) لكن المثل السائر يقول: إن ما لا يدرك كله لا يترك جله، ولكن التعبير بكلمة جله بالنسبة إلى هذا العصر فهي عظيمة جدًا وستقاضيني بالتعمق في البحث والدراسة، وهذا هو ما أتهرب منه الآن وإن كنت في الوقت نفسه مصممًا -إن شاء الله تعالى - على التعمق في دراسة تاريخ هذا العصر وإعطائه جانبًا عظيمًا من الاهتمام ومزيدًا من التفكير لنخرج منه بصورة واضحة تجلي عن ما له من مكانة أو قل: تتقارب وعظيم مكانته التاريخية، لا مناص إذن من تحديد القول والوقوف به عند حد مدلولات الألفاظ، والوقوف به أمام الغاية التي أريد اتباعها في البحث الذي أنا بصدد الكلام فيه الآن. وملخص ما أريد أن أقوله في دائرة الحصر أني سأجمل القول حينما أستعرض تاريخ هذه العصور ومع الاستعراض سيكون إجماليًا فهو على كل تقدير سينفعنا إذا ما حاولنا التعرف إلى التراث العظيم الذي تركه لنا الشهاب العلوي إلى أن لحق بالرفيق الأعلى.

وما كنت لأوثر الاستعراض الإجمالي - وأتهرب في الحال عن التبسط والشرح إلا لاحتفاظ بشيء من المباحث الطريفة لأسديها إلى الكتاب الذي أنا متعزم إصداره عن الأدب الحضرمي ليكون له من الروعة الجديدة ما يتوازى والمباحث التاريخية التي سبق للقلم أن بان عنها شيئًا - وإلى اللقاء القريب.

علي باعبود العلوي

من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت[١]

- ٢ -

على أن هناك ناقض امرأ القيس بن حجر الكندي - الشاعر المشهور - الشعر، وطارحه القول، وأقض مضجعه بالهجاء والمفاخرة وسقاه الصاب العلقم. ولا بد أن يستشاط امرؤ القيس غيضًا وأن يبلغ به الحنق مبلغًا يستولي على مشاعره فتغلب عواطفه على عقله، ويبلغ به العجزعن مناقضه ألا بأن يسميه بالشويعر:

أبلغا عني الشويعر أني عمد عين قلدتهن حريما[٢]

والشويعر في بيت امرىء القيس هو محمد بن حمران الجعفي، والمؤرخون يذكرون سببًا لإشعال هذه الملاحات لا نظن إلا أن قد سبقته نوازع لإثارة الأحقاد والضغائن غير هذا السبب التافه.

أما السبب الذي أشار إليه المؤرخون فملخصه أن امرأ القيس راسل الجعفي في أن يبيعه الفرس التي كانت له - وقد كانت من الخيل المطهمة - فامتنع عن بيعها وضن بها كما يضن كرام العرب بنفائس الخيل، ولم يمتنع الجعفي عن بيعها ويضن بها كما يضن الكريم بعرضه وروحه؟! وفي كرامها يقول عمه الأسعر[٣] الجعفي الشاعر الفارس المشهور:

---

(١) مجلة الرابطة العربية، السنة الثانية، المجلد الرابع، الجزء ٨١، ٢٦ شوال ١٣٥٦هـ/ ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧م، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) حريم: هو الجد التاسع لمحمد بن حمران.

(٣) سمي بالأسعر لقوله:

فلا يدعني قومي لسعد بن مالك إذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

ولقد علمت على تجنبي الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى
يخرجن من خلل الغبار عوابسا كأصابع المقرور أقعى واصلطلى

ومن لم يلم الجعفي ما انتصب للدفاع عن كرامته والذود عن حوزته وقد بلغه ما قال امرؤ القيس من قوارص الكلم، وقذائف الهجاء، وأن يقول:

أتتني أمور فكذبتها وقد نميت لي عامًا فعاما
بأن امرأ القيس أمسى كئيبا على آله ما يذوق الطعاما
لعمر أبيك الذي لا يهان لقد كان عرضك عني حرما
وقالوا هجوت: ولم أهجه وهل يجدن فيك هاج مراما ؟
أتتني ثمانون أعطيتها تخال متاليهن الجلاما
ألست الجواد كفيض الفرات منهزمًا جانباه انهزاما
ألست الوفي بجيرانه فلم تصطلم أذناه اصطلاما
فحلته ضرجت بالعبير وهبت معًا والصقيل الحساما
ومهرية كصفاة المسيل لا يجد الماء فيها اهتضاما

ومن الأسف ان برحت الأيام والحقب المتوغلة في القدم بأشعار الجعفي ولم تبق لنا منها إلا الأبيات القليلة في حين أنه معدود في الشعراء المكثرين كما يستفاد من بعض المصادر التي ترجمته.

وبما ذكرنا من أبياته السالفة الذكر نستدل على أنه كان من ذوي السلالة في القريض وممن لا يكترث بالمبالغة في الفخر ولا يغرب في معانيه وإنما يرسل نفسه على سجيته. ولو كانت لنا من أشعاره مجموعة لفخرنا بقول رائع

وشعر له من سلالة القول وعدم الإغراب ما يبوئه المكانة العالية في هذا العصر وإن لم يبلغ به الإجادة في الشعر مبلغ الشعراء الفحول.

وعشيرة شاعرنا المذكور تسكن جردان المشهور بطيب عسله، وهو في أعلا وادي حضرموت الغريبة، وبه ينتهي حدها من هذا صخرة بيضاء إذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان، وكان سدنته بني مشاكمة بن شبيب السكوني، ثم إلى أهل بيت منهم يقال لهم: بنو علاث الناحية. وهو يفصل ما بينها وبين المخاليف اليمنية الأخرى.

وللجعفي مكانة عظيمة في حضرموت في الجاهلية وصدر الإسلام. واشتهر منهم عدد وافر في صدر الإسلام. ومنهم الصحابي الجليل والشاعر المخضرم سلمة بن يزيد بن مشجعة بن مالك الجعفي وهو من الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جعفي وممن حسن إسلامه. ومن الملتهب عاطفة ما قاله في رثاء أخيه لأمه:

أقول لنفسي في الخلاء ألومها
لك الويل ما هذا التجلد والصبر
ألم تعلمي أن لست ما عشت لاقيا
أخي إذ أني من دون أوصاله القبر
وكنت أرى كالموت من بين ليلة
فكيف ببين كان ميعاده الحشر
وهوّن وجدي أنني سوف أغتدي
على أثره يومًا وإن نفس العمر

فتى كان يعطي السيف في الروع حقه
إذا ثوب الداعي وتشقى به الجزر[١]
فتى كان يدنيه الغنى من صديقه
إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

فأنت ترى أن في الشعر وحي الشاعرية في الرثاء بالمصاب والتوجع العظيم من الخطب الداهم، وثم لوم النفس على التجلد والصبر، وإنما هون وجده أنه سيقتفي أثره وأثره نفس به العمر. ومثل هذا الأخ الذي يعطي السيف في الروع حقه وتشقى به الجزر لكثرة الطارقين، والذي يدنيه الغنى من صديقه ويبعده الفقر لخليق بوحي الشاعرية الصادقة وخليق بمثله أن يبكى - ولئن تجلت الأشعرية بمثل هذا النفس الصادق والسلاسة المطبوعة على بقية أشعار سلمة الجعفي رضي الله عنه - فحق لحضرموت أن تفخر به ولنترك الحكم إذًا على ما له من أشعاره إلى أن يتكفل الزمن ببعثها من مظانها.

وإذا صوبنا النظر نحو امرئ القيس بن عباس[٢] بن المنذر بن السمط الكندي الصحابي الجليل ألفينا شاعرًا له مكانته بالنسبة لشعراء حضرموت، وعدا ما له من المكانة في الشعر فقد كان له وفادة على النبي ﷺ ومواقف مذكورة تجاه المرتدين من الحضارمة - وهو الذي خاطب الأشعث الكندي لما ارتد ورفض بيعة الصديق - رضي الله عنه قائلاً: أنشدتك الله يا أشعث

(١) تمثل بالبيتين الأخيرين من هذه القصيدة أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ حينما بلغه مقتل طلحة رضي الله عنه.
(٢) ومن المؤرخين من يقول: إنه بالنون ـ أي ابن عناس.

ووفادتك على النبي ﷺ وإسلامك أن تنقضه اليوم. ووالله ليقومن بهذا الأمر من بعده، ثم يقتل من خالفه فإياك إياك أبق على نفسك فإنك إن تقدمت تقدم الناس معك، وإن تأخرت افترقوا واختلفوا، فأبى الأشعث وقال: " قد رجعت العرب إلى ما كانت الآباء تعبد ونحن أقصى العرب دالاً من أبي بكر فلن يبعث إلينا بالجيوش فقال له امرؤ القيس: " إي والله - وأخرى لن يدعك عامل رسول الله ﷺ ".

مما يقتضيه الاستطراد إجمال القول عن آلهة حضرموت وأصنامها وما كانت تعبد في أيام الجاهلية. ولولا أن كلمتنا هذه هي كتمهيد لتاريخ النهضة الحضرمية لتبسطنا في الشرح ولأشرنا إلى المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا البحث. وسنذكرها - إن شاء الله تعالى - إذا ما أفردنا هذا البحث واستقل به مؤلف خاص.

لم تكن حضرموت بعزل عن اليهودية ولا النصرانية فقد دان بهما فيها بعض الحضارمة، كما أن في حضرموت من دان بالمجوسية، ولكن أكثر أهل القطر الحضرمي كانوا كبقية العرب يدينون بأصنام وأوثان كانت لهم حتى إنه كان لبعض أعيان حضرموت وسادتها أصنام خاصة بهم، هذا عدا الأصنام التي كانت لجميع الشعب.

فمن الأصنام التي كان يعبدها على حد سواء قبيلتا كندة وحضرموت وغيرها الصنم الكبير المسمى (بالجلسد) وكان كجثة الرجل العظيم وهو مصنوع من واسم سادنه الأحرز بن ثابت وكانوا يكلمون منه وله حمى خاص به ترعاه سوامه وغنمه. وكان هو في الغنم إذا رعت حماه حرمت

على أربابها وفيه يقول الشاعر:

فبات يجتاب شقارى كما بيقر من يمشي إلى الجلسد

- شقارى بالتشديد اسم بنت، وخفف لضرورة الشعر. والبيقرة إسراع في المشي يطأطىءالرجل فيه رأسه - ومن أصنام كندة بحضرموت (الجلبدان) وكانوا يعبدونه ويكلمون منه حتى جاء الإسلام. وكان من أصنامهم أيضًا (ذريح) وموضعه بالبحيرة من حضرموت. ومن أصنام حضرموت مرحب وكان سادنه ذا مرحب وبه سمي ذا مرحب.

ومن الأصنام الخاصة التي كانت لأولي الأمر في حضرموت منها صنم وائل بن حجر الحضرمي أحد الأقيال الجنوبية وكان صنمه من العقيق وله مع وائل بن حجر خبر معروف ذكره أهل السير في سبب إسلام وائل بن حجر - رضي الله عنه.

ويعني أمرؤ القيس بعامل رسول الله ﷺ على حضرموت زياد بن لبيد البياضي الأنصاري.

وفي مواقف امرئ القيس المحمودة في الذود عن الإسلام يقول:

دعوت عشيرتي في السلم لما رأيتهم أغاروا مفسدينا
وقلت لهم أنيبوا يال قومي إلى ما قد أناب المسلمونا
فكونوا منهم أني اهديتم وإلا فاقنعوا بالذل فينا
فإني آخذ عنكم شمالاً برجلي إن ضللتم أويمينا
فلما أن عصوني لم أطعهم ولم أطمعتهم متحزبينا
أخذت الفضل إذجاروا وحسبي بأخذ الفضل دينًا مستبينا

فلست بعادل بالله ربًا ولا مستبدلاً بالدين دينا
شأمتم قومكم وشأمتمونا وغابركم سيشأم غابرينا
وكان الأشعث الكندي رأسًا وقد أضحى بها علقًا مدينا
أيجمع غدرتين معًا جميعًا وفي شهرين منكوبين فينا
فلا للمسلمين وفيت صبرًا وقد صبروا ولا للمشركينا
وصحت بني معاوية ولما تنال بذاك حجرًا والسكونا
وكنت بها أخا إفك وكربٍ ولم تك في فعالك مستبينا

من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت[١]

- ٣ -

طالما كنا حريصين كل الحرص على الاقتصار في البحث على الناحية الأدبية التي نحن بصدد الكلام عليها، وأن لا نتطرق إلى المباحث التاريخية الأخرى إلا بمقدار ما يستلزمه البحث الأدبي، وتستهوينا الآن حياة امرئ القيس بن عابس الكندي والتعرف على نفسه لأن نخوض غمار التاريخ السياسي في ردة كندة بحضرموت، ذلك التاريخ الذي كاد أن يقلب حضرموت ظهرًا على عقب ويعيد إليها عهد الأثرة بالتأله بعبادة الأصنام والأوثان.

ومع استهواء حياة امرئ القيس والتعرف إلى نفسه لنا عن طريق الناحية التاريخية السياسية فإنا سنحرص على الغاية التي نتوخاها من هذه الإلمامة، فلن نتوغل في البحث السياسي إلا بمقدار ما ينيره لنا في موضوع بحثنا الأدبي، مع علمنا أن التاريخين السياسي والاجتماعي صنوان للتاريخ الأدبي غير أنهما قد أصبحا علمين مستقلين لكل منهما مزاياه الخاصة به، وهي التي ينبغي للمؤرخ أن يتوجه إليها بوجهة صادقة لكي يتمكن من إظهار ما لهما من مزية، ولو أنا عرناهما لغة صادقة لخرجنا عن موضوع بحثنا وما نحن بصدد الكلام عنه، وهذا ما لا نؤثره الآن.

وإذا ما استعلمنا التاريخ وطرقنا أبواب الأسفار - جمع سفر - لا شك أنا لن نعود إلا وحقائبنا ملآنة بالمعلومات العظيمة، والمفاخر الجزيلة،

(١) مجلة الرابطة العربية، السنة الثانية، المجلد الرابع، الجزء ٨٢، ٣ ذي القعدة ١٣٥٦هـ/ ٥ يناير ١٩٣٨م، ص٣٠-٣٢.

والمكارم العالية، والفروسية التي لا يستغرب صدورها من رجل امتلأ قلبه بالإيمان، وتغذت روحه بالإسلام.

ذلك الرجل هو امرئ القيس الصحابي الجليل - رضي الله عنه - لقد كانت لامرئ القيس مواقف محمودة في الذب عن الإسلام بلسانه وسنانه، وكان ندي الصوت، مسموع الكلمة، مرهوب الجانب .

إن امرأ القيس هو الذي نصح الأشعث بن قيس الكندي، وذكره بالله أن ينقض إسلامه بعد وفادته النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أشرنا إلى هذا في مقالنا الثاني مع جواب الأشعث عليه - وهو (أن العرب قد رجعت إلى ما كانت الآباء تعبد، ونحن أقصى العرب دارًا من أبي بكر فلن يبعث إلينا بالجيوش).

وفي قصيدته التي سبق نشرها تتجلى لك العاطفة القلبية مجسمة، فقد كاد أن ينوب من التأوه والتوجع والأسف الشديد على عشيرته الذين آثروا الكفر على الإيمان واستحبوا العمى على الهدى ورغبوا عن عبادة الله - سبحانه عز وجل - إلى عبادة الأصنام والأوثان.

ولأن امرأ القيس ممن لا تأخذهم في الله لومة لائم فكذلك لم يكن من الذين تستولي عليهم العاطفة الرحيمة إن آذنت شمسها بالغروب إلى الكفر. ففي موقفه اتجاه عمه خير ما يستدل به على مبلغ إيمانه وقوة إيقانه ورباطة جأشه.

وملخص ما ذكره المؤرخون أن امرأ القيس شهد فتح النجير. وهو الحصن الذي التجأ إليه أخيرًا المرتدون من كندة مع من انضم إليهم من

السكون والسكاسك وشذاذ من الحضارمة - أي القبيلة - بعد أن تقدمته عدة وقعات ما بين المسلمين والمرتدين صاحب النصر المسلمين فيها، فلما تمكن من فتح النجير بعد الصلح الذي قام بالسفارة فيه الأشعث الكندي مع عامل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعامل أبي بكر - رضي الله عنه - وهو زياد بن لبيد البياضي الأنصاري واتفق السفيران على شروط نلم بها في موضع آخر، ووفى المسلمون للأشعث بالشروط التي تقررت لهم وخرج الأشعث بالأمان، فلما رأى امرؤ القيس عمه وثب عليه لقتله. فقال له: "ويحك يا امرأ القيس، أتقتل عمك، فقال له: أنت عمي، والله عز وجل ربي".

فقد كان امرؤ القيس من رجال الحرب والطعان وممن كان لهم سيفًا صارمًا في سبيل نصرة الحق وقد شهد كل الوقائع التي كانت ما بين المسلمين والمرتدين بحضرموت. وكما أن له سيفًا صارمًا فقد كان له رأي مقبول وكلمة نافذة وصوت مسموع في مقدمة الذين أشاروا على زياد بن لبيد باستئناف الحرب والعودة إليها بعد أن توقف عنها زياد مدة. وذلك بعد انتصاره والمسلمين على المرتدين. في الوقعتين اللتين يقال لإحداهما: يوم البكرة - وكانت أول وقعة ما بين المسلمين والمرتدين - والثانية المسماة بيوم النفرة. ما كان لامرئ القيس أن يشير على عامل رسول الله عليه الصلاة والسلام بالحرب لولا أنه تيقن أن المرتدين من عشيرته الكنديين قد استحوذ عليهم الشيطان وأضلتهم الأهواء وأن ليس لديهم أدنى استعداد إلى الرجوع إلى الحق والاهتداء بهدى الإسلام. بل إنهم مصرون على الردة ومنع الزكاة والهجوم على المسلمين إذا ما تكاملت لهم التعبئة العسكرية التي أخذوا

يستعدون لها.

ومن ثم جنح زياد بن لبيد وأكابر المسلمين إلى آراء المشيرين عليهم باستئناف الحرب والعودة إليها وتيقنوا أن تركهم الحبل على الغارب يهيئ للمرتدين فرصة عظيمة تتضاعف بها قوتهم وترسخ بها مكانتهم.

وأحزم الناس من أن فرصة عرضت لم يجعل السبب الموصول منقضبًا لأن في ضياع الفرصة ما يوجب الحسرة والندامة وأولى بالمسلمين أن يقدموا على الحرب سباقين من أن يلبوها مضطرين ومدافعين.

لأن المرتدين سكارى من نشوة الكفر، ومعتدّون بما لهم من مكانة عظيمة في الهيئة الاجتماعية الحضرمية، وما لهم من قوة وعدد جم، فقد بلغ بهم التذمر أي تنادوا بينهم وقالوا: " لا تصلح البلدة أي بلدة حضرموت، علينا وعلى هؤلاء حتى تخلف لأحد الفريقين "، إذا فَلم يبق أمام المسلمين سبيل غير الإقدام على الحرب ومناجزة المرتدين وغزوهم وهم في عقر دارهم قبل أن يغزوا هم المسلمين ولا يدع بعد هذا أن يتمثل زياد قائلاً:

وكنت امرأ لا أبعث الحرب ظالمًا
فلما حموا أشعلتُها كلَّ جانب

وقد كان ذلك، فإن المسلمين لبوا نداء زعمائهم وقوادهم وتقدموا إليهم وطرقوهم وهم في عقر محاجرهم وما بين إمائهم فوجدوهم جلوسًا حوالي نيرانهم فأكبوا على من يريدون لا سيما على ذوي الشوكة والقوة والمناعة منهم كملوك بني عمرو بن معاوية الكنديين، وهم الذين لبوا دعوة الأسود

العنسي - متنبي اليمن - كمسيلمة في بني حنيفة[١] وهم الذين استطالوا في القول فذاقوا وبال أمرهم فقتل ملوكهم الأربعة وهم: جمد، ومخوص، ومشرح وإبضعة. وأختهم العمردة وصاحب المسلمين النصر في هذه الواقعة مع كثرة جموع المرتدين وقوتهم العظيمة ولم ينج من القتل من بني عمرو إلا من أطاق الهرب منهم.

وحينما أفضت الطريق بأسرى المرتدين بمعسكر الأشعث الكندي استغاث نسوة بني عمرو بن معاوية ونادين الأشعث خالاتك فنهض لاستنقاذهم وقال:

منعت بني عمرو وقد جاء جمعهم بأمعز من يوم البضيض وأصبرا

وبعد أن أنقذ الأشعث أمراء المرتدين أيقن بخطورة الموقف وأن المسلمين لن يستضاموا، واستدعى إلى معسكره بني الحارث بن معاوية الكنديين، والهاربين من بني عمرو بن معاوية، ومن أطاعه من السكاسك، والخصائص من قبائل ما حولهم.

وتبين بعد هذه الوقعة كل من بحضرموت من المسلمين انحاز إلى زياد

---

(١) لما أكثر الناس القول في تعبير بني حنيفة لردتهم واتباعهم مسيلمة الكذاب غضب لقومه على هوذة بن علي الحنفي وكان شاعرًا فقال:

رمتنا القبائل بالمنكرات وما نحن إلا كمن قد جحد
ولسنا بأكفر من عامر ولا غطفان ولا من أسد
ولا من سليم وألفافها ولا من تميم وأهل الجند
ولا ذي الخمار ولا قومه ولا أشعث العرب لولا النكد
ولا من عرانين من وائل بسوق النجير وسوق النقد
وكنا أناسًا على غرة نرى الغي من أمرنا كالرشد
ندين كما دان كذابنا فيا ليت والده لم يلد

بن لبيد، كما انحاز إلى الأشعث كل المرتدين، ولما رأى زياد بن لبيد أن الحالة قد استحكمت حلقاتها شدة تقضي باستعجال الجيش الذي أرسله الصديق - رضي الله عنه - نجدة للمسلمين بحضرموت حينما علم بردة كندة تحت قيادة الفارسين العظيمين الصحابيين المهاجر بن أبي أمية المخزومي وعكرمة بن أبي جهل القرشي، أرسل رسله إلى المهاجر وعكرمة يستحثهما في الوصول، وكتب لهما أيضًا أكابر المسلمين بحضرموت، فلقيتهما رسل زياد وهما قد اجتازا برملة صيهد - هي مفازة ما بين مأرب وحضرموت - فعجل المهاجر في سرعان الناس بالمسير إلى حضرموت واستخلف على الجيش عكرمة بن أبي جهل، وما وطئت قدماه حضرموت إلا ونهد وزياد والمسلمون إلى كندة المرتدين ومن والاهم فالتقوا بمحجر الزرقان، وكان قيادة المرتدين للأشعث الكندي فكانت وقعة عظيمة انتصر فيها الإسلام على الكفر، وانهزم المرتدون فيها وهرب منهم من استطاع أن يهرب والتجأ بحصن النجير فغدا بكندة المرتدين وغيرهم كسكان مدينة من مدن حضرموت اليوم.

فاقتفى أثرهم المسلمون ولحقوا بهم، فنزل زياد على إحدى السبل الثلاث المؤدية إلى النجير، ونزل بالثانية المهاجر بن أمية، وكانت الثالثة للمرتدين تؤديهم إلى حصنهم غدوًا ورواحًا في ذهابهم وإيابهم، حتى قدم عكرمة بن أبي جهل بالجيش إلى حضرموت، فنزل بجيشه على هذه الطريق فلم يبق للمرتدين منفذ فحصروا، ولما حال عليهم الأمد تعاهدوا فيما بينهم على الاستماتة وأن لا يفر أحد منهم، وقام راجزهم إحدى الليالي يقول:

صباح سوء لبني قتيرة وللأمير من بني المغيرة

فرد عليه زياد بن دينار عن المسلمين قائلاً:

لا توعدونا واصبروا حصيرة نحن خيول ولد المغيرة
وفي الصباح يظفر العشيرة

فلما أصبح الصباح خرج المرتدون من حصنهم وحميت وطيس الحرب ما بين الفريقين، فكثرت القتلى بحيال كل طريق من الطرق الثلاث، وانهزمت كندة أخيرًا، ورجعوا إلى حصنهم، وكان من خبرهم بعد ذلك مصالحة المسلمين، فأنابوا الأشعث الكندي عنهم في المفاوضة مع زياد بن لبيد، وكان من خبره معهم أن غدر بهم، وأخذ الأمان لنفسه وعشيرته الأقربين، وسنلم بتفصيل ذلك في موضع آخر من بحثنا.

قلنا في أول مقالنا إن البحث الأدبي يجرنا إلى البحث التاريخي السياسي لما له من وصلة محكمة الوشائج بحياة امرئ القيس والتعرف إلى نفسه وميوله، وما كنا لنصل إلى قرارة نفس امرئ القيس لو أنا أغضينا عن طرق البحث التاريخي السياسي ومع شرفه، فانتضبنا أهم أخباره تاركين ما يحتمه النظر في البحث والاستنتاج والتعليق على الحوادث والمقرنة بينها، وتاركين أيضًا التوسع في الشرح للفرصة التي قد تسنح لنا يوماً ما فنعيرها جانبًا من الالتفات وجانبًا من الفكر، وهناك نتناول الموضوع كباحث يهمه التدقيق في بحثه وتوفية موضوعه.

وفي مقالنا القادم سنعرض لنفسية امرئ القيس في أشعاره، وإلى اللقاء قريبًا إن شاء الله تعالى.

من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت[١]

- ٤ -

عرجنا بالبحث في مقال الأسبوع الماضي على ردة كندة حضرموت بغية التعرف إلى نفسية امرئ القيس بن عباس الكندي فعرفنا رجلاً في الإسلام ينازل الأقران، ويفقأ عيون الخصوم، ويشهد الوغى بشجاعة وثبات جنان ورباطة جأش، وعرفنا رجلاً تصوب آراؤه وتنفذ كلمته. فهل كان امرؤ القيس من رجال الحرب والطعان في أيام الجاهلية؟ وهل قد خاض المعامع وابتلي بمنازلة الكماة البواسل فتجلت شجاعته كمواقفه في الإسلام؟ إن التاريخ ليضن علينا بشيء من سيرته قبل الإسلام، وما معرفتنا بحياته إلا استنتاج من أشعاره التي نراه فيها يؤثر الحياة، ومن ثم نرى أنه كثير الجزع من الموت لا يقدر على تصوره بل يرعبه ذكره فيشتد به الجزع والخوف لأدنى عارض يعرض له من العوارض الجسمانية، بل وكثيرًا ما نراه شديد الجزع وإن لم يكن هناك ما يدعو إلى الخوف والهلع، حتى لو نهجت إليه الذكرى أو وقف على الأطلال الدوارس لأنشدك شعرًا ينعى فيه ويبكي حياته ومن ذلك قوله:

قف بالديار وقوف حابس ... وتأنَّ إنك غير آيس
لعبت بهن العاصفات ... الرائحات من الروامس
ماذا عليك من الوقو ... ف بهالك الطللين دارس؟

(١) ذكرنا هذه القصيدة في مقالنا المنشور في الجزء ٨١، من مجلة الرابطة العربية صفحة ٣٢.

يـــارب بـــاكـــيـــة عـــلـــي ومـنـشـد لـي فـي الـمـجـالـس
أو قـــائـــل: يـــافـــارسًـــا مـاذا رزئـت مـن الـفـوارس؟
لاتـعـجـبـوا أن تـسـمـعـوا هـلـك امرؤ الـقـيس بـن عـابـس

لندع امرأ القيس متفجعًا من غصص الذكرى لأهل الديار الذين حبس نفسه للتفجيع عليهم، ولننظر إليه وهو يتشوق إلى الصهباء ويتمنى أن يشرب كأسًا من المشعشعة أو من صريح العقار بلذة الشارب الثمل كما يقول: فلن نجده إلا من عرفنا شديد الحرص على الحياة منغص العيش من ذكر الموت.

وأنى لنا بمجازاة القائل بأنه قال هذه الأبيات وقد انتابه مرض، وامرؤ القيس هو من عرفنا كثير الجزع من الموت في أيام الجاهلية:

ألا ليت شعري هل أرى الورد مرةً يـطـالـب سـربًـا مـوكـلاً بـغـرار؟
أمـام رعـيـل أو بـروضـة مـنـصـح أبـــادر نـــوامًـــا وأجـــل صـــوار
وهـل أشربن كأسًا بلذة شارب مشعشعة أومن صريح عقار ؟
إذا ما جرت في العظم خلت دبيبها دبيب بنات النحل وهي سوار

هكذا كان امرؤ القيس في أيام الجاهلية ممن يؤثر الحياة ويجزع من ذكر الموت، ويتنغص عيشه إذا ماخطر له خاطر منه، ولو لم يكن فيه ما يوجب الجزع ولا الخوف.

أما امرؤ القيس في الإسلام فمواقفه تتجلى بوضوح في مقال الأسبوع الماضي فقد كان من رجال الحرب والرأي وصدق العزيمة وثبات الجأش. ولئن كانت مواقفه في الحرب تختلف كل الاختلاف عمن يؤثر النعيم والبقاء في الحياة فإن نفسه في الشعر غيره في أيام الجاهلية، فهو هناك جزع من

ذكر الموت غير قادر على تصوره.

وهو في الإسلام كثيرًا ما يعود بالرضا، ويعتصم بالصبر والتسليم ولم نقف له على شعر يبكي فيه الحياة لأجل الحياة، وإنما تتجلى في شعره عاطفة الحب والشفقة في مثل قصيدته التي مطلعها:

دعوت عشيرتي في السلم لما[١] رأيتهم أغاروا مفسدينا
وقلت لهم أنيبوا يا لقومي إلى ما قد أناب المسلمونا

ويتجلى في شعره التأثر والحزن ولكن في حدود دائرة الإسلام في مثل قوله يصف المنية ويبكي عشيرته الذين هلكوا في طاعون عمواس[٢] وكان يومئذ نازلاً ببيسان وذلك بعد هجرته من حضرموت وبعد استتباب الأمن فيها والقضاء على فتنة أهل الردة التي وقى الله - سبحانه عز وجل - شرها الحضارمة. فإن المؤرخين ذكروا أن امرأ القيس بعد أن هاجر من حضرموت تنقل في الأقطار الإسلامية ثم تدير الكوفة - وأظنه بها توفى - وفي أثناء تنقلاته اجتاز بالشام.

وما استتبت له الإقامة ببيسان إلا وفشى إلا وفشى طاعون عمواس فمات فيه كثير من عشيرته الكنديين فقال:

رب خرق مثل الهلال وبيضا لعوب بالجزع من عمواس
قد لقوا الله غير باغ عليهم فأحلوا بغير دار ائتناس

(١) كان طاعون عمواس في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . رضي الله عنه.
(٢) لا غرو أن نجاري الجغرافيين الأقدمين في الاصطلاح، قول ياقوت: بيسان بالفتح ثم السكون مدينة بالأردن بالغور الشامي.. ويقال: هي لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين.

وصبرنا حقًا كما وعد الله وكنا في الصبر قوم تآسي

لقد ضن التاريخ علينا ولم يزودنا بالمعلومات الكافية التي يمكن الاجتياز بها إلى نفسية امرئ القيس، ومعرفة الدواعي التي كانت تلهب الخوف والجزع إذا ما ذكر الموت في أيام الجاهلية، ولئن تقاصرت الخطى بالمعلومات التاريخية وقعدت بنا عن الوصول إلى الغاية المتوخاة من الدراسة فقد تقادم العهد أيضًا على أشعاره ولم نعرف منه إلا الأبيات القليلة وهي لا تجتاز بنا في الدراسة إلى تحليل نفسيته، وإنما ذكرها المؤرخون بقصد الاستدلال على أنه شاعر - أي لا بقصد الاستفادة منها في التاريخ.

وليت شعري فإن كان عداده في الشعراء بنسبة ما وصل إلينا من أشعاره بعد مراجعة عشرات الكتب فمن الخير لهذه التسمية أن يئدها رواد الأدب والتاريخ. لندع الكثرة أو القلة فيما ورد من شعره، وإنما يهمنا معرفة الظاهرة الغريبة في نفسية امرئ القيس التي طالما أظهرت منه رجلاً جزعًا في أيام الجاهلية. وعندما اعتنق الإسلام نرى له وجهة في الحياة غير الوجهة التي كانت له قبل، فقديمًا كان يندب الحياة لأجل الحياة.

وهو في الإسلام إن تأثر لحادث عظيم فتأثره في حدود العقل والدين، وكما أن مغامرته في حروب الردة في الإسلام تدل على أنه من رجال الحرب الذين يستهينون بالموت، فكذلك قل عن أشعاره فليس فيها ما يدل على الجزع من ذكر الموت كما في أشعاره في أيام الجاهلية إذن - فلم يبق أمامنا إلا أن نجاري قرائن الأحوال. ويحق لنا أن نتساءل هل كان امرؤ القيس من أرباب الثراء؟! وهل كان من المتنعمين في الحياة؟ والجواب عن هذين السؤالين يتوقف على معرفة تاريخ حضرموت العمراني في هذا العصر.

ولئن توسعنا في الشرح سنخرج عن حدود الدائرة المرسومة لهذه الإلمامة التي رأينا أن نربط بها تاريخ النهضة الأدبية الحديثة في حضرموت، والذي يظهر لنا أن امرأ القيس كان من أرباب الثراء وربما كان مسمى ذروة اليسار بالنسبة إلى حضرموت، وهو فوق هذا متنعم في ما آتاه الله - عز وجل - وضارب في سرادق الخير. ولهذا نراه كثيرًا ما يتجرع الصاب والعلقم ويتنغص عيشه إذا ما خطر له الموت. وهل ذكر الموت إلا استعراض لمغادرة ذلك النعيم المتوفر ومبارحة لذلك العيش الرغيد، ومن ثم كان امرؤ القيس يندب الحياة ويستثقل الموت، ويتجلى الجوع في أشعاره وإن لم يفتن في إجادة التصوير ولم يحذق الإجادة في التعبير.

ولئن انقادت الشاعرية لامرئ القيس أحيانًا، وأسلست له القيادة، ووفق في بعض أشعاره، فقل ما يتقارب والإبداع، وكثيرًا ما بلغ الأسباب في القول مبلغًا يقعد به عن المكانة التي له بالنسبة إلى شعراء حضرموت.

وما أبياته التي مطلعها:

ذريني منك يا بعلي ذريني وذري عذلي

إلا أشبه بقول بشار:

ربابة رب البيت تصب الخل بالزيت

والفارق بينهما أن أبيات بشار قالها شاعر فحل عرف بالتماجن وكثيرًا ما تلاعب بالشعر في دعاباته التي لا تحد، وهيهات أن يؤثر الأمة السوداء - وهي التي لا تفهم العربية ولا تحسن غير تربية الدواجن - بإحدى غرر القصائد. أما امرؤ القيس فإنه قال أبياته مخاطبًا زوجته ولا نظنها إلا من صميم العرب وإنما هو ضعيف الشاعرية، وإن شئت فقل إيثار الدعابة

بسخيف القول على الجزالة والمتانة:

ذرنـيـي مـنـك يـا بـعـلـي[١] ذرنـــيـــي وذري عـــذلـــي
ونَـبْـلـي وفُـقَـاهَـا كَـ عَـراقـيـب قـطـا طُـحـل
وثـــوبـــان جـــديـــدان وأرخـــي شـــرك الـــنـــعـــل
ومـــنـــي نـــظـــرة خـــلـــفـــي ومـــنـــي نـــظـــرة قـــبـــلـــي
فـــإمـــا مـــت يـــا تـــمـــلـــي فـــمـــوتـــي حـــرة مـــثـــلـــي
وقـــد أشـــنـــأ لـــلـــنـــدمـــا ن بـــالـــنـــاقـــة والـــرحـــل
وقـــد أَخـــتـــلـــسُ الـــطَّـــعْـــنَـــ ـةَ لا يـــدمَـــى لـــهـــا نَـــصْـــلـــي
كـجـيـب الـدفـنـس الـورهـا ء ريـعـت وهـي تـسـتـفـلـي

هام امرؤ القيس بامرأة من الجند وكان ذلك في أيام عثمان - رضي الله عنه - وكانت تتجنى عليه فلما حضرته الوفاة أتته مسلمة مع نسوة فأنشد حينما رآها:

أريتك أن مرت عليك جنازتي تـلـح بـهـا أيـد طـوال وتـرجـع
أما تتبعين الناس حتى تسلمي على رمس قبري كل ميت مودع ؟

فبكت ودنت منه. فقال:

دنـت وظـلال الـمـوت بـيـنـي وبـيـنـهـا
وجـادت بـوصـل حـيـن لا يـنـفـع الـوصـل
ألا لا يـضـر الـمـرء طـالـت ديـونـه
إذا أوجـبـت حـوبـاؤه الـخـلـف والـمـطـل

(١) هذا الشطر لا يعرف للشاعر وأصله: أيا تملك يا تملِ ** ذرنيي وذري عذلي

فلما حشرج بكت عليه وأظهرت جزعًا مجاوزًا فقال:

ألمت فحيت ثم عاجت فسلمت على غصة بين الحيازم والنحر
خليلي إن حانت وفاتي فاحفرًا برابية بين المحاضر والقفر

والرواية تذكر أن مرأ القيس بعد نطق البيتين الآخرين شهق شهقة النفس الأخيرة وفاضت روحه - رحمه الله - فأبكت عليه باكية واشتد بها الجزع فماتت مكانها معه.

(البيتان الأخيران نسبهما ياقوت الحموي لمالك بن الصمصامة الجعدي مع اختلاف يسير في الألفاظ وزاد عليهما بيتًا آخر وهو:

لكيما تقول العبدلية كلما رأت جدثي حييت يا قبر من قبر

والعبدلية هي معشوقة لمالك الجعدي اجتازت به وكان أخوها حاضرًا فأغمي عليه، فلما أفاق أنشد الأبيات - (معجم البلدان ٢ / ٥٦).

علي باعبود العلوي

من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت[١]

- ٥ -

عبيد الله بن الحر الجعفي

بينما كنت أتأهب لتناول القلم لأجتاز به عصور العقم في حضرموت إذا عبيد الله بن الحر الجعفي يستوفيني ويهيب بي إلى النظر في أشعاره. فقلت له: وأين كنت قبل إذ لم تسبق لي معرفة بك؟ وأنى لي بالوقت الكافي للبحث عن أشعارك والوقت يحفزني للمضي في الكتابة لإتمام البحث الذي أنا بصدد الكلام عنه؟ وما أظنك تضايقني إلى حد أن تضيع علي نفائس أوقاتي التي أنا في أشد الحاجة إلى الاحتفاظ بها؟ فقال لي معذرة: فما كنت يومًا ما بالرجل الثقيل حتى أضيع عليك نفائس أوقاتك - وإني كريم، والكريم يعرف واجبات غيره كما يعرف واجبات نفسه. وكل ما أرجوه منك الآن أن تعيرني لفتة إذ المقصود أن تسجل اسمي بين شعراء حضرموت ولو لم تبلغ في الحث إلى الغاية التي لمحتك ترنو إليها، وإني أتقبل كل هذا منك، ولي إزاء هذا منك مطلب لا أظنه يثقل عليك - إني أرجو أن توليني مزيد اهتمامك من بعد اليوم حتى إذا ما تحفزت فيك الرغبة الصادقة - لإفراد ما كنت تدبجه أسبوعيًا على حدة في كتاب خاص، هنالك توليني من عنايتك ما تكمل به ما نقص عليك اليوم، وعندك متسع من الوقت لأن

(١) مجلة الرابطة العربية، السنة الثانية، المجلد الرابع، المجلد ٨٥، ٢٤ ذي القعدة، ١٣٥٦ هـ/ ٢٦ يناير ١٩٣٨م، ص ٢٧-٢٩.

معرفتك بي كانت حديثة العهد، وإنما تأخرت عن التعرف إليك لتنقلي في الأقطار ومحاربتي البغاة الطغاة. فاستدللت من كلام عبيد الله بن الحر على نضوج أفكاره، وسمو عقله، وأنه كريم، ومن كان له مثل هذه النفس العلية فإنه جدير بالإكبار والإعجاب، وأراني سعيدًا بالتعرف إليه، فالكرام في العالم قليل. ونظرت من ناحية أخرى فيما طلبه عبيد الله بن الحر فلم أر في طلباته ثقلاً، وغاية ما في الأمر أني لن أستوفي البحث اليوم محتده وكرم نفسه فإنه قد مهد لي العذر، وتقبل مني كل ما أوليه من نظر اليوم، فحقًا إنه كريم.

وإني أعده - إن شاء الله تعالى - أني سأتابع البحث عن بقية أشعاره وأخباره حتى إذا صحت عني العزيمة، وصدقت النية على جمع ما سأنشره تباعًا بمجلة الرابطة العربية - الغراء - هنالك أكون عند حسن ظنه بي، وأدعي له مكانته الأدبية بالنسبة إلى شعراء حضرموت، وأحلي كتابي بفصل عنه خاص، مع التعاليق التي يقتضيها البحث، وهي التي لم أشر إلا إلى البعض منها، لا سيما وأنه من شعراء الصدر الأول في الإسلام، وإن حضرموت لتفخر بما له من شعر.

تتجلى في أشعار عبيد الله بن الحر ظاهرتان لم يجاره فيهما فيما أعلم أحد من شعراء حضرموت:

١ - الظاهرة الأولى أنه كثير الاعتداد بنفسه وفيه فخر فهو لا يفتأ متحدثًا عن نفسه ذاكرًا لمواقفه الحربية وما كان له من انتصارات في غاراته وحروبه.

٢ - أما الظاهرة الثانية فكثرة أسماء الأماكن والبلدان التي نراها ترد تباعًا في أشعاره - حتى كأنها هي وحدة قائمة بذاتها، وبالطبع إنها تهم الجغرافيين؛ لأنها تعينهم على معرفة الأقاليم وأسماء الأماكن والبلدان .

ولا غرو - فإن عبيد الله بن الحر كانت له المواقف العديدة فقد أقض مضجع عبيد الله بن زياد وأصلى المختار الثقفي نارًا، وجرت ما بينه وبين مصعب بن الزبير المناوشات العديدة، والوقائع الكثيرة. وبالطبع إن مثل عبيدالله بن الحر وهو الرجل الأبي والمعتز بمكانته وما له من سؤدد - وفوق هذا ما له من يقظة الشاعر تحيط بها روح العصبية العربية بما لعشيرته من مكانة في الجاهلية ولإسلام كل هذه دوافع تنطق عبيد الله بن الحر بأن يشيد بمواقفه، وأن يفتخر بانتصاراته. ومن قوله يتوعد ابن الزبير:

وبالقصر ما جربتموني فلم أخم ... ولم أكُ وقَّافًا ولا طائشًا فشل
وبارزت أقوامًا بقصر مقاتل ... وضاربت أبطالاً ونازلت من نزل
فلا بصرة أمي ولا كوفة أبي ... ولا أنا يثنيني عن الرحلة الكسل
فلا تحسبني ابن الزبير كناعس ... إذا حل أغفى أو يقال له ارتحل
فإن لم تزرك الخيل تردي عوابسًا ... بفرسانها حولي فما أنا بالبطل

لا علم لي بالأسباب التي استوجبت مناوأة عبيد الله بن الحر لمصعب بن الزبير، أما مناوأته للمختار الثقفي فإنها كما أظن ترجع إلى أن المختار قام بتثبيط الناس عن نصرة المطالبين من الشيعة بدم الإمام الحسين السبط الشهيد عليه السلام، وذلك سنة خمس وستين هجرية، وكان عبيد الله بن الحر من الذين ندموا أشد الندم لتخلفه عن نصرة السبط الشهيد - رضوان

الله عليه - لا سيما وأن السبط استنصره فاعتذر إليه وفي ذلك يقول:

فيا لك حسرة ما دامت حيا تردد بين حلقي والتراقي
حسينًا حين يطلب بذل نصري على أهل العداوة والشقاق
ولو أني أواسيه بنفسي لنلت كرامة يوم التلاق
مع ابن المصطفى نفسي فداه فيا لله من ألم الفراق
غداة يقول لي: بالقصر قولاً أتتركنا وتزمع بانطلاق؟
فلو فلق التلهف قلب حي لهم اليوم قلبي بانفلاق
فقد فاز الألى نصروا حسينًا وخاب الآخرون أولوا النفاق

وابن الحر حينما يعمم سيفه برؤوس المختار الثقفي إنما ليبطل بذلك سحرهم الذي يفرقون به بين الحق والباطل قال:

ويوم بحولايا فضضت جموعهم
وأفنيت ذاك الجيش بالقتل والأسر
فَقَتلتهم حتى شفيت بقتلهم
حرارة نفس لا تذل على القسر
ومن شيعة المختار قبل شفتيها
بضرب على هاماتهم مبطل السحر

كان عبيد الله بن الحر لا تقر له قدم بأرض حتى يغادرها إلى غيرها كأنه موكل بمعرفة الأقطار من قبل جمعية جغرافية ليرسم لها خريطة في أشعاره، وهو لا يثنيه عن الرحلة الكسل كما يقول، وإذا حل ببلاد لم يغف بها ولم تأخذه بها سنة، وإنما هو يقظ يستقر بها ما دامت مطمئنة إليها

نفسه، فإذا ما استشعر الخوف والهوان رحل عنها غير هياب ولا وجل واقتحم غيرها، وإنما لم تستقر به قدم في قطر لكثرة مناوأته للناس وحروبه المستمرة، وهاك من أقواله ما يدل على كثرة إقدامه على الحرب وتنقلاته العديدة قال:

أتوني بقياض وقد نام صحبتي وحارسهم ليث هزبر أبو أجر
فقتلت قومًا منهم لا أعزة كرمًا ولاعند الحقائق بالصبر
ألا هل أتى الفتيان بالمصر أنني أسرت بعين التمر أردع ماجدا ؟
وفرقت بين الخيل لما تواقفت بطعن امرئ قد قام من كان قاعدا
ويومًا بسوراء التي عند بابل أتاني أخو عجل بذي لجب مجر
فثرنا إليهم بالسيوف فأبدروا لئام المساعي والضرائب والنجر

وإذا كان سيف عبيد الله بن الحر أبطل سحر شيعة المختار فإنه بأكناف جازر وراذانها يعمم به كل من لم يكن سامعًا لقوله ولا مطيعًا له، وتلك حالته مع كل المخالفين عليه قال:

أقول لأصحابي بأكناف جازر وراذانها هل تأملون رجوعا
فقال امرؤ: هيهات لست براجع ولم تك للتقنيط منه بديعا
فعممته سيفي وذلك حالتي لمن لم أجده سامعًا ومطيعا

لئن عيب على النابغة الذبياني وبعض شعراء الجاهلية ما ورد في أشعارهم الجاهلية ما ورد في أشعارهم من الأقواء قد يكون لهم من العذر ما يسوغ صدور مثل ذلك منهم؛ لأن نشأتهم كانت في عصر أمي صرف، ولهذا فإن النابغة الذبياني لم يفقه ما يعنيه نقاد الأدب بالأقواء حتى أسمعوه

شعره ملحنًا ففطن لما يعنونه ولم يعد إليه بعد ذلك:

مـــن آل مـــيـــة رائـــح أو مـــغـــتـــدي
عـــجـــلان ذا زاد وغـــيـــر وزودِ
زعـــم الـــبـــوارح أن رحـــلـــتـــنـــا غـــدا
وبـــذاك خـــبـــرنـــا الـــغـــداف الأســـودُ[1]

أما عبيد الله بن الحر وقد نشأ في الإسلام فغير مقبول صدور منه، وليت الأمر وقف به عند حد القليل بل إنه تجاوزه إلى حد الكثرة حتى قال عنه يونس النحوي هازئًا من أجل ذلك حتى بمكانته في الشعر:

(إن الإقواء خير منه) قال:

جعلت قصور الأزد ما بين منبج إلى الغاف من وادي عمان المصوب
بلاداً نفت عنها العدو سيوفنا وصفرة عنها نازع الدار أجنب

وإذا كن عبيد الله بن الحر كثير الافتخار بمواقفه الحربية وكثير الإشادة بانتصاراته وذاكرًا أن النصر حليف له في غزواته فإنه قد يصدق عن نفسه وعن خيله التي قد تحجم عن اقتحام الهيجاء أحيانًا وهي في يوم ساباط أحجمت عن الإقدام وما ذلك منها عن جبن وخور عزيمة، وإنما آثرت الإحجام على الإقدام حينما بدت لها الألوف المؤلفة تلو الألوف وفي ذلك

(١) الإقواء: هو اختلاف القافية، وهو أن يختلف إعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة --**/١، ورد في شعر النابغة وعبيد الله بن الحر. وقال ابن قتيبة: (إن بعض الناس يسمي اختلاف الإعراب في القوافي بالإكفاء، وعنهم أن الإقواء هو نقصان حرف من فاصلة البيت).

يقول:

دعـانـي بـشـر دعـوة فـأجـبـتـه بساباط إذ سيقت إليه حتوف
فلم أخلف الظن الذي كان يرتجي وبعض أخلاء الرجال خلوف
فإن تك خيلي يوم ساباط أحجمت وأفزعها من ذي العدو زحوف
فما جبنت خيلي ولكن بدت لها ألوف أتت من بعدهن ألوف.

علي باعبود العلوي

من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت[١]

- ٦ -

عبيدالله بن الحر الجعفي

تعرفت في مقال الأسبوع الماضي إلى عبيد الله بن الحر وكانت معرفتي به حديثة العهد، أي إنها كانت ابنة تلك الساعة التي تناولت فيها القلم لأحرر بعض المباحث الأدبية التي تنتهي بنا إلى تاريخ النهضة الحديثة في حضرموت، وابن الحر هو كما ذكرت عنه في مقال الأسبوع الماضي فيه اعتداد بنفسه وفيه إباء وصلف عظيم وكان شجاعًا لا يعطي للأمراء طاعة في نفسه.

واذا أصغينا لحديث السكري فإنه يروي لنا أن لعبيد الله بن الحر مع معاوية بن أبي سفيان مواقف هي على جانب كبير من الأهمية في التعرف إليه. ولا غرو إذا ما استهزأ بمصعب بن الزبير واستخف بعبيد الله بن زياد وقاضى المختار الثقفي بالحرب تجاه ما دبرته يداه.

وملخص ما ذكره السكري عن ابن الحر أن معاوية بن أبي سفيان استدعاه يومًا إليه، ولما دخل عليه واستقر به المجلس قال له: ما هذه الجماعة التي بلغني أنها ببابك؟ فقال له ابن الحر: أولئك بطانتي أقيمهم وأتقي بهم إن ناب جور أمير. فقال له معاوية: لعلك يا ابن الحر، قد تطلعت نفسك نحو بلادك ونحو علي بن أبي طالب؟ فقال له ابن الحر: إن

(١) مجلة الرابطة العربية، السنة الثانية، المجلد الرابع، الجزء ٨٦، ذي الحجة، ١٣٥٦هـ / ٢ فبراير، ١٩٣٨م، ص ٣٣-٣٦.

زعمت أن نفسي تطلع إلى بلادي وإلى علي، إني لجدير بذلك، وإنه لقبيح بي الإقامة معك وتركي بلادي، فأما ما ذكرت من علي فإنك تعلم أنك على باطل، وقبل أن يتم كلامه قاطعه عمرو بن العاص قائلاً له: لقد كذبت يا ابن الحر وأثمت. فقال له ابن الحر بل أنت أكذب مني، واستشاط ابن الحر غيظًا وما يملك أن يقيم مع معاوية بعدما سمع منه ما تقدم من الكلام وخرج من مجلسه، وبيومه ارتحل إلى الكوفة في خمسين فارسًا من قومه حتى إذا أمسى وبلغ مسالح معاوية منعة المسير خفراء المسالح[١] فاشتبك معهم في حرب فأردى البعض منهم قتيلاً، وخرب البقية فأخذ دوابهم وما احتاج إليه من الزاد ومضى في سبيله قاصدًا الكوفة لا يمر بقرية من قرى الشام إلا وأغار عليها حتى قدم الكوفة.

فمن هذه المعلومات التي أدلى بها إلينا أبو حبيب السكري نتوصل إلى حل كثير من غوامض تاريخ حياته وتتجلى لنا الغاية التي يرنو إليها في قوله:

فلا بصرة أمي ولا كوفة أبي ولا أنا يثنيني عن الرحلة الكسل[٢]

أما أنه لا يثنيه عن الرحلة الكسل فهذا ما لم يختلف فيه اثنان، فقد علمنا من أشعاره ما ينفي عنه الريبة في القول، فإنه قلما أصبح في قطر إلا وأمسى في غيره.

ولولا استعصاء القول عليه لذكر في المصراع الثاني انتسابه إلى

(١) في أساس البلاغة: وفي موضع كذا مسلحة ومسالح، وهم قوم وكلوا بمرصد معهم السلاح.

(٢) هذا البيت من أبيات ذكرتها في مقال الأسبوع الماضي، قالها ابن الحر مخاطبًا بها مصعب بن الزبير.

حضرموت بعد أن نفى عن نفسه الانتساب إلى البصرة والكوفة وهذا ما فطن له المعري. قال الخفاجي: " مازلت أسمع أبا العلاء يقول: إن من الشعر ما يصل إلى غاية لا يمكن تجاوزها ".

وهو يعني بقوله: فلا بصرة أمي ولا كوفة أبي - أن جيشه سيدلف به إلى حرب ابن الزبير هو ومن ينتمون إليه نسبًا ووطنًا، فلا غرو أن ولاءهم له سيكون أعظم وهم إذا ما استماتوا في الدفاع معه فإنهم إنما يستميتون في الدفاع عن أنفسهم ولو رفع مكانتهم لأن في انتصاره على ابن الزبير انتصارا لهم، لا كجيش ابن الزبير الذي يتألف من أهل البصرة والكوفة فهم لا يمتون إليه لا برابطة النسب ولا القومية ولا الوطنية، فإذا ما تقاعدواعن نصرته فليس ذلك بغريب منهم.

ابن الحر في الكوفة:

قال أبو سعيد السكري: إن ابن الحر عندما قدم إلى الكوفة وجد زوجته التي أخذها أهلها منه قد زوجوها إلى رجل يقال له عكرمة - لسبب لم يذكر لنا بيانه عنه - فخاصمهم إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فقضى له بالمرأة بعد أن قال له: يا ابن الحر أنت الممالي علينا عدونا. فقال ابن الحر: أما إن ذلك لو كان لكان أثري معه بينًا، وما كان ذلك مما يخاف من عدلك. وطيلة حياة أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو مقيم بالكوفة منقبض من كل أمر وبقي بها إلى حين مقدم الإمام السبط الحسين رضي الله عنه.

وإذا كنا ننحو في الدراسة - إلى درس الناحية الأدبية من تاريخ ابن الحر فإن المصادر التاريخية التي هي في متناول اليد لا تحدثنا عنه إلا بعد

الستين من الهجرة النبوية - على مشرفها أفضل الصلاة والسلام، أما قبلها فلا أعرف عن حياته الأدبية شيئًا - وما أظنه إلا شاعرًا من قبل ذلك. وقد شهد القادسية مع خاليه زهير ومرثد ابني قيس بن مشجعة. وعهدنا بابن الحر كثير الافتخار بمواقفه الحربية، لكن القادسية لم أر لها ذكرًا في أشعاره التي وقفت عليها.

مع أن التاريخ يحدثنا أن المسلمين حينما تم لهم فتح القادسية واليرموك ونهاوند اجتمعوا فذاكروا وتفاخروا، وقام كثير من الشعراء يشيدون بمواقفهم الحربية، ومن هؤلاء عمرو بن معد يكرب الزبيدي الفارس المشهور وفي ذلك يقول:

لمن الديار بروضة السلان فالرقمتين فجانب الصمان؟
لعبت بها هوج الرياح وبدلت بعد الأنيس مكانس الثيران
فكأن ما أبقين من أياتها رقم ينمق بالأكف يمان

ثم بعد أن ذكر الديار - وما ذكر الديار إلا وفاء نحو من كان بها - انسل إلى النسيب الذي يبعث في الشيخ الهرم نشوة الارتياح لأن يحن إلى نضارة الشباب ويتذكر أيام الصبا وما تكاملت لديه الفتوة - فتوة الشباب فيما نثره من شعره العاطفي إلا وتخطى إلى الفخر فذكر غزوات بني زبيد لبني جعفر وبني بكر لبني الهصان. ثم ذكر أسرهم للأشعث الكندي بعد أن سما لهم من حضرموت يقود الجياد الشزب وفي ذلك يقول:

والأشعث الكندي حين سما لنا من حضرموت مجنب الذكران
قاد الجياد على وجاها شزبا قب البطون نواحل الأبدان

حتى إذا أسرى وأوب دوننا من حضرموت إلى قصيب يمان
أضحى وقد كانت عليه بلادنا محفوفة كحضيرة البستان
فدعا فسومها وأيقن أنه لا شك يوم تسابق وطعان

ثم مضى في الشعر - يصف الكر والفر والشاعرية تسابق فرسان الطعان في مواتاتها له - وما الخيل العربية التي تقل الأبطال إلا عابسة الوجوه في حين أن نحورها تضاحك المنية، وتلاعب الأسنة والكماة عليها يتواردون على حياض الموت باسمين للمنية، يتهادون فيما بينهم قلائد الفخر فلا ينثنون إلا وقد أسروا الأشعث بن قيس في تسعين من لهاميم كندة - وإنما استسلموا لهم بعد أن خفت الدعاء وصرعوا القتلى:

حتى إذا خفت الدعاء وصرعت قتلى كمنقعر من الغلان
نشدوا البقية وافتدوا من وقعنا بالركض في الأدغال والقيعان
واستسلموا بعد القتال فإنما يتربقون تربق الحملان
فأصيب في تسعين من أشرافهم أسرى مصفدة إلى الأذقان
فشتا وقاظ رئيس كندة عندنا في غير منقصة وغير هوان

ثم امتطى سنام الشاعرية وتخطى بالقول إلى وصف بلائه في القادسية فقال:

والقادسية حيث زاحم رستم كنا الحماة بهن كالأشطان
الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان
ومضى ربيع بالجنود مشرفًا ينوي الجهاد وطاعة الرحمن
حتى استباح قرى السواد وفارس والسهل والأجبال من مكران

فأين يا ترى كان ابن الحر - وهو الذي عهدناه كثير الافتخار بمواقفه الحربية ما دق منها وجل؟ أترى أنه ما شهد القادسية؟ ولكن التاريخ يذكر لنا عنه أنه شهد مع خاليه، أم أنه لم يقل الشعر بعد، وإنما قاله بعد أن

اكتهل؟ وما لم تواتني الفرصة لمراجعة بعض الأسفار التي نظن أن فيها بعض المعلومات عنه لا نستطيع أن نجيب على هذين السؤالين.

لما اجتاز السبط الشهيد الحسين رضي الله عنه بقصر بني مقاتل وهو قادم إلى الكوفة رأى هناك فسطاطًا مضروبًا فاستفهم عنه. فقيل له: هذا لعبيد الله بن الحر فأرسل إليه الحجاج بن مسروق وزيد بن معقل الجعفيين، وكان بصحبته فدخل عليه الحجاج وبعد أن سلم قال له: أجب الحسين بن علي، فقال ابن الحر: " أبلغ الحسين أنه إنما دعاني إلى الخروج من الكوفة حين بلغني أنك تريدها فرارًا من دمك ودماء أهل بيتك ولئلا أعين عليك، وقلت إن قاتلته كان علي كبيرًا وعند الله عظيمًا، وإن قاتلت معه ولم أقتل بين يديه - كنت قد ضيعت قتله، وأنا رجل أحمى أنفًا من أن أمكن عدوي فيقتلني ضيعة. والحسين ليس له ناصر بالكوفة ولا شيعة يقاتل بهم " فأبلغ الحجاج الإمام السبط الحسين ما قاله عبيد الله، فقصده السبط الحسين بنفسه ولما دخل عليه أوسع له في صدر مجلسه وتلقاه بالترحيب " ما يمنعك يا بن الحر أن تخرج معي؟ فقال ابن الحر: لو كنت كائنًا من أحد الفريقين لكنت معك، ثم كنت من أشد أصحابك على عدوك، فأنا أحب أن تعفيني من الخروج معك، ولكن هذه خيل لي معدة، وأدلاء من أصحابي، وهذه فرسي المحلقة فاركبها، فوالله ما طلبت أحدًا إلا فقته فاركبها حتى تلحق بمأمنك، وأنا لك بالعيالات حتى أوديهم إليك أو أموت أنا وأصحابي عن آخرهم، وأنا كما تعلم إذا دخلت في أمر لم يضمني فيه أحد. فقال له السبط الحسين: أهذه نصيحة لنا منك يا بن الحر؟ فقال نعم: والله الذي لا فوقه شيء. فقال له الحسين: إني سأنصح لك كما نصحت لي إن استطعت أن لا تسمع صراخنا ولا تشهد وقعتنا فافعل. فوالله لا يسمع داعيتنا أحد لا

ينصرنا إلا أكبه الله في نار جهنم.

ثم خرج الإمام الحسين من عنده وهو كما حدّث يزيد بن مرة عن ابن الحر أنه لم ير قط أحسن ولا أملأ للعين منه.

وكان من خبره ما هو معروف من قتله بكربلاء رضي الله عنه[١]:

كربلا لا زلت كربًا وبلا ما لقى عند آل المصطفى

وما عتم ابن الحر أن ندم على تخلفه عن نصر السبط الحسين واختنق بعبرته حينما اجتاز بشهداء ألطف وهم صرعى الظلم والجبروتية، وازداد ندمًا حينما سمع من عبيد الله بن زياد كلمات التهم القارصة،فإنه بعدما عاد إلى الكوفة دخل على عبيد الله بن زياد وكان أشراف الناس يدخلون عليه فقال له: أين كنت يا بن الحر؟ فقال: كنت مريضًا. فقال له: كنت مريض القلب أم مريض الجسد؟ فقال ابن الحر: أما قلبي فلم يمرض قط. وأما جسدي فقد منّ الله تعالى بالعافية. قال: قد أبطلتها ولكنك كنت مع عدونا.

---

(١) لعل من أروع مارثي به السبط الشهيد الحسين - رضي الله عنه - ما رثته به حفيدة الفضل وابنة النبل والعبقرية، ورضيعة لبان المجد عن أبيها السبط وعن أمها سيدة النساء وعن جدها الرسول - عليه الصلاة والسلام - السيدة الجليلة سكينة - رضي الله عنها - قالت:

لا تعذليه فهم قاطع طرقه فعينه بدموع ذرف غدقه
إن الحسين غداة ألطف يرشقه ريب المنون فما أن يخطئ الحدقه
بكف شر عباد الله كلهم نسل البغايا وجيش المرق الفسقه
يا أمة السوء هاتوا ما احتجاجكم غدا وجلكم بالسيف قد صفقه؟
الويل حل بكم إلا بمن لحقه صيرتموه لأرماح العدا درقه
ياعين فاحتفلي طول الحياة دمًا لا تبك ولدًا ولا أهلا ولا رفقه
لكن على ابن رسول الله فانسكبي قيحًا ودمًا وفي أثريهما العلقة

فقال ابن الحر: لو كنت مع عدوك لم يخف مكاني.

فقال له: أما معنا فلم تكن؟ فقال: لقد كان ذاك ثم استغل ابن زياد وخرج من عنده، وركب فرسه وأم المدائن، وقال لئن استطعت أن لا أرى له وجهًا لأفعلن. وقال راثيًا السبط الشهيد معرضًا بابن زياد

نادمًا أشد الندم على تخلفه عن نصر الإمام الحسين - رضي الله عنه -:

يقول أمير غادر حق غادر ... ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه
ونفسي على خذلانه واعتزاله ... وبيعة هذا الناكث العهد لائمه
فواندمي أن لا أكون نصرته ... ألا كل نفس لا تسدد نادمه
وإني لأني لم أكن من حماته ... لذو حسرة ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تأزورا ... على نصره سقيا من الغيث دائمه
وقفت على أجداثهم ومجالهم ... فكاد الحشا ينقض والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى ... سراعًا إلى الهيجا حماة ضراغمه
فإن يقتلوا فكل نفس زكية ... على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الراؤون أصبر منهم ... لدى الموت سادات وزهرًا قماقمه
أتقتلهم ظلمًا وترجو ودادنا؟ ... فدع خطة ليست لنا بملائمه
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم ... فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مرارًا أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فكفوا وإلا زرتكم في كتائب ... أشد عليكم من زحوف الديالمه

علي باعبود العلوي

من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت[١]

- ٧ -

بما أني على وشك اجتياز تاريخ العصور التي صاحب الأدب الحضرمي فيها العقم بعد أن ضعفت فيها الملكة الشاعرية، أرى أن لا مندوحة للقلم من التعريج به أولاً على الناحية التاريخية - الغير الأدبية - للاستعلام عن القبائل العربية التي كانت تسكن حضرموت من أواخر القرن الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري والإسلامي؛ لنتوثق في البحث عما بأيدينا من الشعر لهذه القبائل التي كانت تسكن حضرموت، ولنعرف مقدار الشاعرية لدى كل منها.

وإذا ما استعملنا التاريخ، وعرجنا على ينبوعه الفياض لنستسقي منه ما يهمنا في البحث، فلن نعود إلا وقد أدلى إلينا بمعلوماته العظيمة التي تتوثق بها صلات الأدب الحضرمي بتاريخ حضرموت السياسي والاجتماعي والجغرافي. وهناك ما حبانا به التاريخ عن القبائل العربية التي كانت تسكن حضرموت من أيام الجاهلية إلى القرن الرابع الهجري.

(١) حضرموت القبيلة وهم الذين سكنوا حضرموت - البلد - في العصور المتوغلة في القدم، وفي نسبهم في البلاد أو نسبة البلاد إليهم اختلاف ما بين المؤرخين، المرجع أن حضرموت البلد سميت باسم جدهم الأعلى.

---

(١) مجلة الرابطة العربية،السنة الثانية، المجلد الرابع، الجزء ٨٧، ٨ ذي الحجة ١٣٥٦هـ/ ٩ فبراير ١٩٣٨م، ص٣٥-٣٧.

(٢) قبيلة الصدف بكسر الدال، ومن المؤرخين من ينسبها إلى حضرموت، والبعض الآخر ينسبها كندة .

(٣) قبيلة كندة بجميع عشائرها وأفخاذها - وقد نما عددها، وكثرت أفخاذها، والمتبادر إلى الذهن من مفهوم كلام المؤرخين أن اسم كندة يراد به فقط أبناء معاوية بن كندة وهم الملوك المتوجون، أو قل من كان فيهم الملك، وعدا كندة الملوك فخيذة السكون، والسكاسك وهم غير سكاسك حمير.

ولم تكن كندة بحضرموت، وإنما هاجروا إليها بعد أن أجلوا عن المشقر والبحرين وغمر ذي كندة بعد مقتل ابني الجون الكندي كما يقول الهمداني، ولكن ما ذكره الهمداني عن هجرة كندة إلى حضرموت، وتحديده زمن الهجرة بأنها كانت بعد مقتل ابني الجون لا ينطبق والواقع. ومع ما للهمداني من مكانة في التاريخ وما له من مقدرة عظيمة في التأليف والبحث والتقصي، فإن كلامه عن هجرة كندة لا يتفق والواقع، لا سيما لمن عرف تاريخ كندة، وعلم ما لها من المكانة العظيمة في تاريخ حضرموت القديم، مما يدل على أن هجرتها إلى حضرموت كانت قبل مقتل ابني الجون بعشرات السنين، إن لم نقل بمئاتها، وإلا فكيف ترتكز لهم تلك المكانة العظيمة في حضرموت ويستبحر نفوذهم في سنوات عديدة، ولا يخالجنا شك في هجرة كندة إلى حضرموت بأنها كانت قبل مقتل ابني الجون بمدة طويلة، وغلط الهمداني في ذلك واضح، لاسيما والمؤرخ الجليل المسعودي أبدى لنا نصًا عن مقتل ابن الجون، وأنه كان يوم شعب جبلة،

أي في الحرب التي اشتعلت نارها بين بني عامر بن صعصعة وأحلافهم من بني عبس، وتميم من الناحية الأخرى، وكان يوم شعب جبلة قبل الإسلام بنيف وأربعين سنة، كما يقول المسعودي (التنبيه والإشراف صحيفة ٢٠٤): وإذا نظرنا إلى ملوك كندة في معد العدنانية نعلم أن هجرتهم كانت من حضرموت، وقد نص اليعقوبي في تاريخه على أسماء ملوكهم، وذكر أن مرتع بن معاوية بن ثور الكندي وهو أول ملوك كندة في معد ملك ٢٠ سنة، ومن ملوكهم الحرث بن معاوية ملك ٤٠ سنة ووهب بن الحارث ٢٠ سنة وعمر بن حجر ٤٠ سنة، فهؤلاء أربعة نص اليعقوبي على المدة التي تملكوا فيها، ومجموعها فقط ١٢٠ سنة، وعدا هؤلاء من لم ينص اليعقوبي على المدة التي تملكوا فيها[١] وفي تاريخ العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان- ولا يحضرني الآن - مقارنة بين ما ذكره اليعقوبي وأبو حمزة الأصفهاني عن ملوك كندة، كما أذكر فإن عهدي به من سنوات، فليراجعه من أحب.

وأني لنا بمجاراة الهمداني فيما زعمه عن هجرة كندة بدون تحقيق، وهذا امرؤ القيس بن حجر الشاعر المشهور حينما بلغه أن المنذر بن ماء السماء نذر دمه وقد خذلته قبيلتا بكر وتغلب أراد التوجه إلى اليمن ولكنه خاف حضرموت - أي القبيلة - أن تطلبه بما كان بينهم من دماء وتحول فلجأ إلى السموأل بن عاديا (وفاته كانت سنة ٥٦٠ م) أي قبل الإسلام بنيف وخمسين سنة، فلو اجتزأنا بهذا النص الأخير واطرحنا ما ذكره اليعقوبي وقرائن الأحوال والمدلولات لظهر خطأ الهمداني أيضًا- بل لو لم نجد نصًا

(١) ج ١ صفحة ٢٤٦.

صريحًا لكان لنا في مكانة كندة بحضرموت، وهي التي يقول عنها ابن علي المرزوقي الأصفهاني بعد أن ذكر حضرموت وكندة معًا قال ما نصه: " إن فضل أحدهما على الآخر، كفضل قريش على سائر الناس " ما يكفي لاطراح ما ذكره الهمداني وبناء الحكم على نقض كلامه. إذ من غير المعقول أن تكون لها تلك المكانة العظيمة التي دوى بها التاريخ، وتتردد صداها في الأسفار وهي وليدة السنوات المحدودة[١].

(١) قبيلة جعنى ومساكنهم في أعلى وادي حضرموت الغربي بوادي جردان.

(٢) قبيلة مهرة القضاعية .

(٣) بعض العشائر التي تنتهي نسبها في حمير .

(٤) بعض العشائر القليلة العدد وفيهم من يمت إلى همدان في النسب وإلى جرهم بيت أو بيتان.

(٥) مهاجروا بعض الأعاجم الذين هاجروا إلى حضرموت واستوطنوا بها في فترات عديدة مع عدد من الموالي.

هذه هي القبائل التي نص التاريخ على وجودها بحضرموت إلى القرن

---

(١) مزية الهمداني تتجلى واضحة في تحقيقاته العلمية التاريخية التي شاهدها بنفسه، أما فيما ينقله بالسماع أو الرواية عن المؤرخين فإنه كما يظهر لا يكلف نفسه عناء البحث والتدقيق فيه. وقد استدرك عليه مولانا صاحب الفضيلة الإمام العلامة الكبير البحاثة المؤرخ الجليل شيخنا السيد علوي بن طاهر الحداد العلوي الحسني زعيم العلويين بالمهجر، ومفتي جهور - الملايوية - في تاريخه المسمى - عقد الياقوت في تاريخ حضرموت - لم يطبع بعد - بعض الغلاط التاريخية التي أخطأ فيها وفي مجلة الرابطة العلوية التي كانت تصدر من (باتا فيا) عاصمة (جاوة) في المجلد الأول صحيفة ٥٤٧ عليه - بعض الاستدراكات.

الرابع الهجري، وزادنا عنها بيانًا ما نص على أماكنها، ولولا أني ملتزم الإيجاز هنا لرسمت لها خريطة توضح أماكن كل قبيلة على حدة[١].

فماذا يا ترى بأيدينا عن شعراء كل قبيلة؟ وأي القبائل كانت أكثر إنجابًا للشعراء؟ بغض النظر عن قوة الشاعرية أو ضعفها، فلسنا نريد المقارنة ما بين شعراء حضرموت والشعراء الفحول النابغين في بقية الأقطار العربية الأخرى. فإن اتجاه هذه الناحية قد بسطنا وجهة نظرنا في المقال الافتتاحي - عدد ٨٠ - وإنما نريد المقارنة ما بين شعراء حضرموت لا غير.

وإذا رجعنا إلى المعلومات التي قطفنا يانعها من المصادر التاريخية نجد أن حضرموت القبيلة لا نعرف عن شعرائها شيئًا يذكر، ومن غير المعقول أن لا يحذق الشعر من أبنائها من يقتدر على قرض الشعر ويتسامى في ذلك مع النابغين في الشعر من أبناء القبائل العربية الأخرى، لاسيما وأن حضرموت ترجع في أنسابها إلى أصل معرق في العروبة عدا ما لها من المكانة التاريخية العظيمة في التاريخ العربي الحضرمي، وهي التي لم يضارعها فيها غير كندة، وآنفًا ذكرت ما قاله المرزوقي الأصفهاني فيها وفي كندة.

لا بل إن كندة مع ما لها من قوة عظيمة وعدد وافر لم تثبت أمامها في الحرب التي اشتعلت بينها وبين حضرموت، فلما طال أمد الحرب عليها، وكثر فيها القتل استلانت في القول وجنحت إلى مهادنة حضرموت، مع

(١) لن يفوتني - إن شاء الله - إثبات ماتركته هنا قاصدًا من ذكر المصادر التاريخية التي عولت عليها في النقل مع رسم الخريطة التي تبين أماكن القبائل العربية بحضرموت إذا ما أفردت ما يمليه الفراغ الآن في كتاب، وسأوضح ما أجملته بالتعاليق التي يقتضيها البحث وتنسجم مع الغاية التي أرنو إليها في التعريف بأدب حضرموت.

مالها من المناعة بالعدد الوافر الذي يقول عنه الهمداني بعد أن ذكر هجرتها إلى حضرموت بعد أن أجلت عن البحرين وغمر ذي كندة[١]، قال مانصه:

"وكان الذي نقل منهم عن هذه البلاد إلى حضرموت نيفًا وثلاثين ألفًا". فماذا يا ترى بأيدينا عن شعراء حضرموت؟ الجواب على ذلك في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

علي باعبود العلوي

(١) غمر ذي كندة موضع وراء وجرة، بينه وبين مكة مسيرة يومين. معجم ياقوت، وفيه يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إذا سلكت غمر ذي كندة مع الصبح قصدًا لها الفرقد
هنالك إما تعزي الفؤاد داومًا على أثرهم تكمد

من تاريخ النهضة العربية في حضرموت[١]

- ٨ -

إذا استثنينا[٢] ما ذكره المؤرخون عن كليب بن أسد بن كليب التنعي الحضرمي الصحابي الجليل من الأبيات التي أنشدها بين يدي النبي ﷺ حينما قدم إلى المدينة مع وفد حضرموت، فإني أكاد أجزم بأنا لا نعرف عن شعراء حضرموت شيئاً.

وإنه ليعز علي - وايم الله - أن لا تتسامى قبيلة حضرموت في الشعر مع النابغين من بقية القبائل العربية الأخرى التي كانت تسكن بحضرموت.

وإذا قلنا النابغين - فإنما نقول ذلك تجوزًا - أو بتعبير آخر، فإنا في موقف المقارنة ما بين شعراء حضرموت وبقية الأقطار الأخرى، فلا بد حينئذ من تضييق دائرة التعبير قليلاً، ولا بد من معرفة مدلولات الألفاظ، لأن حضرموت لم تنجب لنا شاعرًا يحق لنا أن نفاخر به العالمين العربي والإسلامي لا في الجاهلية ولا في القرون الأولى بعد الإسلام، وأما بعد هذه العصور فسنقف مع شعراء حضرموت وقفة قد تعلي من شأن الشعر الحضرمي، ولعلنا إذ ذاك نستطيع أن نرفع رؤوسنا بعد الانحناء الطويل الذي استمر أحقابًا وسنين.

ما لي ولهذا القول، فإنما أنا بصدد الكلام عما نعرفه عن شعراء حضرموت - أي القبيلة - أجل، لقد عز علينا أن لا نعرف لحضرموت من الشعر ما تتسامى به، مع مما عرفناه لبقية أبناء القبائل العربية الأخرى التي

---

(١) مجلة الرابطة العربية، السنة الثانية، المجلد الرابع، الجزء ٨٩، ٢٩ ذي الحجة، ١٣٥٦ / ٢ مارس ١٩٣٨، ص ٢٨ . ٢٩.

(٢) لهذا البحث صلة بما نشر في المقالة السابقة عدد ٨٧ من الرابطة العربية الغراء.

كانت تسكن حضرموت - وإن يكن ما عرفناه لبعض هذه القبائل هو من القلة بمكان عظيم جدًا غير أنه على كل حال خير من لا شيء، وإنما عز علينا أن لا نعرف لأبناء حضرموت شيئًا من الشعر لمكانة حضرموت لدينا ولمكانتها في التاريخ. وفي المقالة السابقة إشارة إجمالية لمكانة حضرموت في التاريخ وهي التي يقول عنها أبو علي المرزوقي وقد ذكرها وكندة: (إن فضل إحداهما على الأخرى كفضل قريش على سائر الناس).

إذًا فنحن أمام الأمر الواقع فلنتحمل مرارة الصبر وإن تكن يشجى بها الحلق، وتصدع بها الرؤوس، وتنجرح منها الأحشاء.

وقد تتطلع إلى أبيات كليب التنعي الحضرمي التي لم يسبق لنا الإشارة إليها، أو قل لم أتذكرها قبل، وإنا لتلبية ندائك لحاضرون.

كانت سنة ١٠ من الهجرة النبوية هي التي وفد فيها وفد حضرموت إلى المدينة، ولكليب التنعي خبر مع أمه تهنأة بنت كليب التنعي، ذلك أن تهنأة وقد سمعت من أخبار النبي ﷺ وخبر مبعثه وهجرته ما حدا بها أن تتشوق إلى رؤيته لتسلم على يديه، وإن تكن قد آمنت برسالته واتبعت الدين الحنيف، ولكن أنى لها بالهجرة من حضرموت والمسافة ما بين حضرموت والمدينة ليست بالقريبة؟ فقد قطعها ابنها كليب كما يقول في شهرين، في حين أنه كان ممتطيًا العذافرة المهرية[1]، وهي التي إذا ما كلت الإبل وبلغ بها الإعياء والتعب مبلغًا

(١) ليت لي من الوقت ما يتسع لتحرير صفحات تخصها بذكر ما عرفته من أشعار العرب في وصف الإبل المهرية التي لا يفضلها في السير غيرها من الإبل. ولا غرو أن يترنم بوصفها الشعراء في أشعارهم فإنها لديهم في قطع الأسفار وتقريب المسافات كسكك الحديد والسيارات والطائرات لدينا اليوم، ولئن لم تساعدني الفرصة بذكر الكثير فلنجزئ إذا بالقليل إدلالاً به على الكثير. قال البعيث الحنفي: =

عظيمًا لا تزداد إلا إقدامًا في السير وإمعانًا في الجري. ولا غرو بأن تكلف ابنها كليب بالسفر إلى المدينة ليلتمس لها من النبي ﷺ الدعاء، وليبلغه تحياتها القلبية، وليقدم له الكسوة التي صنعتها بيديها الكريمة، لتفي لدى النبي ذكرى لولائها الشديد ومحبتها الصادقة. وقد اغتبط ابنها كليب بهذه الفرصة العظيمة التي ستتيح له رؤية النبي ﷺ فسافر مع وفد حضرموت سنة ١٠ هـ وما أن بلغ الوفد الحضرمي المدينة وأتى النبي ﷺ إلا وتقدم كليب إليه وأنشد:

من وشز برهوت تهوي بي عذافرة ... إليك يا خير من يحفى وينتعل
تجوب بي صفصفًا غبرًا مناهله ... تزداد عفوًا إذا ما كلت الإبل
شهرين أعملها نصًا على وجل ... أرجو بذاك ثواب الله يارجل
أنت النبي الذي كنا نخبره ... وبشرتنا بك التورات والرسل

هذا هو كل ماعرفناه من شعر حضرموت - أي القبيلة - ومع أني لا أجنح إلى إثبات الشاعرية

. . . . . أروم إلى زيارتك المراما
منَ العيديَّ في نسب المهارى ... تطير على أخشتها اللغاما
وتعرف عتقهن على نحول ... وقد لحقت ثمائلها انضماما

وفيها يقول أبو الطيب المتنبي:

= وهاجرة تشوي مهاها سمومها ... طبخت بها عيرانة واشتويتها
مفرجة منفوجة حضرمية ... مساندة سر المهادي انتقيتها
فطرت بها شجعاء قرواء جرشعا ... إذا عد مجد العيس قدم بيتها
وجدت أباها رائضيها وأمها ... فأعطيت فيها الحكم حتى حويتها

وفيها يقول جرير:

وكيف ولا أشد حبال رحل ..... .

ويلمها خطه ويلم قابلها لمثلها خلق المهرية القود

بالأبيات القليلة لكن للتجوز أو للضرورات أحكام، وهي التي قد تدفعني إلى ذكر بعض الشعراء الذين لا نعرف من أشعارهم غير الأبيات التي لا تكون لنا رأيًا في الشعر ولا عن الشعرية.

ولقد تضيق بنا السبل في البحث إذا ما اتجهنا باليراع نحو بقية شعراء القبائل العربية الأخرى التي كانت تسكن بحضرموت- أي البلد - أكثر مما تضيق بنا في اتجاهنا إلى حضرموت القبيلة. فأي شيء نعرفه عن قبيلة كندة بجميع عشائرها وأفخاذها إذا استثنينا امرأ القيس بن عابس الكندي الصحابي الجليل؟ بل أي شيء نعرفه عن قبيلة الصدف ومهرة القضاعية وحمير وغيرها من بقية القبائل العربية التي تسكن بحضرموت وهي التي أشرنا إليها في المقالة السابقة؟ اللهم أن لا نعلم عن شعرائها شيئًا.

ومن خطل الرأي إذا ما اتهمنا التاريخ والمؤرخين بالتقصير في تدوين نفثات شعراء حضرموت جميعًا - فإنا عن مادرتهم استقينا المعلومات التي تناولها القلم بالدراسة والتعليق، ونشرت في مجلة الرابطة العربية - الغراء - تباعًا. وحسبك أنهم قد ذكروا من لا يعرف له من الشعر إلا الأبيات المعدودة، ومن لم ينصوا على ترجمته في طبقات الشعراء ذكروه عند المناسبة التي تتصل بناحية شعره.

وإن الذي لا نشك فيه أن حظ حضرموت من الشعر قليل. ومن الجائز أن يكون تراث حضرموت الأدبي موزعًا على الأسفار العظيمة، عرفنا بعضه من الكتب التي هي في متناول اليد، وفيه ما لم نعرفه ولا يزال ضانا بنفسه، وتحفظ به بطون الكتب التي لم تصل إلينا بعد، غير أني أرجح أن حظ

حضرموت من الشعر قليل، ولا يمكنني مجاراة هذا الافتراض، ولذلك أسباب للكلام عليها موضع آخر.

وقد لا تزال ترنو إلى أن نروي لك شيئًا مما عرفناه عن الشعر الذي ذكره المؤرخون بالمناسبة التاريخية. فعلى رسلك. فهذا أبو صبيح السكوني ولا نعرف عن حياته شيئاَ غير هذه الأبيات التي يرثي بها قومه المقتولين في حروب الردة بحضرموت[١] ويهجو بها أبا محمد الأشعث الكندي، لأنه استوثق الأمان لنفسه وعشيرته الأقربين، وغدر ببقية المرتدين المتحصنين معه بحصن النجير[٢]، في حين أنهم هم الذين رشحوه للمفاوضة في الصلح ما بينهم وبين المسلمين فكان جزاؤهم.

❀ ❀ ❀

(١) راجع أخبار الردة بحضرموت عدد ٨٢ من الرابطة العربية.

(٢) حصن النجير هو الحصن الذي التجأ إليه أهل الردة بحضرموت بعد أن ضرستهم الحرب وأكلتهم سيوف المسلمين، وهو في الناحية الشرقية من عاصمة حضرموت. تريم الغناء. عده الهمداني من محافد اليمن وقصورها القديمة التي ذكرها العرب في أشعارها وأمثالها. وفيه يقول الأعشى:

وأبتذل العيس المراقيل تغتلي مسافة ما بين النجير وصرخدا

وذكره أبو دهبل الجمحي فقال:

اعرفت رسمًا بالنجير عفا لزينب أو لساره
لعزيزة من حضرموت على محياها النضاره

من تاريخ النهضة الأدبية في حضرموت

- ٩ -

ما أحوجني إلى القصد في القول والوقوف باليراع عند حد الإيجاز، فقد بعد بي العهد وطال بي القول عن الغاية التي أيقظت في الشعور لتناول القلم حينما تناولته لأول مرة.

أجل، لقد بعد بي العهد عن الغرض الذي أراني مسوقًا إليه بهذه الإلمامة التمهيدية، وما أحوجني إلى القصد في القول: ولكن أنى لي ذلك والمسافة شاسعة، والحديث مسوق إلى بعضه البعض، ومرتبطة أجزاؤه بحسب التوجيه الذي يقتضيه المقام ويحيا به الفكر، أو بحسب الارتباط الذي يتناسق والبحث ابتغاء السمو والارتفاع بالثروة الأدبية المعنوية التي تركتها لنا هذه العصور، ورغبة في زيادة الإيضاح والتعرف بالأدب الحضرمي.

وسأحاول جهدي الآن وفي المستقبل أن أقف حذرًا من التيار السياق الذي كاد أن يجرفني، وحال ما بيني وبين الغاية التي أيقظت فيّ الشعور لتناول القلم من أجل التعرف إلى تاريخ النهضة الأدبية الحديثة في حضرموت، وهي التي ألقت قيادها لزعيم الأدب الحضرمي السيد العلامة ابن شهاب الدين العلوي فنهض بها وكان ابن بجدتها.

وحديثي الآن أريد التوجه به إلى تاريخ العصور التي ركد فيها الأدب الحضرمي تمهيدًا لتناول غيرها، ولكن قبل أن أهجم عليها لا بد من كبح جماح القلم والوقوف به في ربوع المقالين المنشورين بمجلة الرابطة العربية

الغراء في عددي ٨٧و ٨٩ توفية للموضوع وإيضاحًا لما يتطلبه البحث ويقتضيه المقام.

وفي العدد الأخير منها أشرت إلى ما ذكره المؤرخون بالمناسبة التاريخية عن بعض الشعراء الحضرميين، وأضيف الآن إلى ذلك ما ذكره ابن عساكر عن الأشعث الكندي بالمناسبة التاريخية مضافًا إليه ما ذكره الآمدي، وفي نظرنا أن الأشعث الكندي لا يستحق لقب الشاعرية، وحسبه أن يكون سيد قومه وفارسهم، ولكني سأجاري الأمدي وابن عساكر فيما ذكراه عنه لا بصفته شاعرًا يستحق التخليد ولكن لغاية قد أعود إليها بالتوضيح فيما بعد.

وهب الأشعث الكندي جارية نفيسة لرجل من جهينة فلامه أهله وقالوا: شيخ قد ذهب عقله:

تملكها وكان لذاك أهلاً أشم الأنف أصيد كالفنيق
نماه من جهينة خير نام إلى العلياء والحسب العتيق
فظل بها يلاعبها عروسًا على لباتها عبق الحلوق

ومما يتصل بالبحث أن الأشعث الكندي وقد تردد ذكره مرارًا عند الكلام على أخبار الردة أنه كان سفير المرتدين للمفاوضة في الصلح مع المسلمين، فتقدم إلى عامل رسول الله عليه وآله وسلم وعامل الصديق[١] رضي الله عنه - وقال له (يا ابن عم قد كان هذا الأمر ولم يبارك لنا فيه، ولي قرابة ورحم، وإن وكلتني إلى صاحبك قتلني - يعني بصاحبه المهاجر

(١) عامل الرسول صلوات الله عليه والصديق، وهو زياد بن لبيد البياضي الأنصاري، وكان من خيار الصحابة وممن شهد بدرًا، وتوفي أول ملك معاوية.

بن أبي أمية المخزومي- وإن أبا بكر يكره قتل مثلي، وقد جاءك كتاب أبي بكر ينهاك عن قتل الملوك من كندة، وأنا أحدهم، وإنما أطلب منك الأمان على أهلي ومالي حتى أقدم على أبي بكر فيرى فيّ رأيه، فقال زياد وماذا ؟ فقال: وأفتح لك حصن النجير، فقبل منه زياد ذلك أي أن المفاوضة أسفرت عن:

أخذ الأشعث الأمان لنفسه وأهله حتى يقدموا على أبي بكر فيرى فيهم رأيه.

أن يفتح للمسلمين صحن النجير - وهو الحصن الذي التجأ إليه أهل الردة بحضرموت بعد أن ضرستهم الحرب بأنيابها وانهزموا في الوقائع التي كانت قبل التجائهم إليه.

أما عدد الذين نال الأشعث لهم الأمان ففي أكثر الروايات أنهم لم يتجاوزوا السبعين - أي أن الأشعث الكندي قد غدر بالمرتدين الذي انتخبوه للمفاوضة في الصلح عنهم وقد ضجوا بالبكاء والعويل حينما علموا بغدره، وأنه لم يأخذ لهم الأمان كما أخذ لنفسه وأهله وماله، وقالوا لزياد بن لبيد: إن الأشعث غدر بنا إذ لم يأخذ لنا الأمان، وما نزلنا من الحصن - أي حصن النجير إلا ونحن آمنون على أنفسنا وأموالنا، فقال لهم زياد: ما أمنتكم قالوا صدقت، غدر بنا الأشعث.

وأرسل زياد بالأشعث إلى الصديق رضي الله عنه - مع الأسرى المرتدين الآخرين تحوطهم رقابة برآسة نهيك بن أوس الأشهلي ومعه ثمانين من بني قتيرة، وكتب إلى الصديق يقول له: (إنا لم نؤمنه إلا على حكمه، وإنا قد بعثنا

به في وثاق ومعه ما خف من أهله وعياله لترى في ذلك رأيك).

وفي المدة التي قضاها الأشعث ومن معه من المرتدين إلى المدينة كان سبايا قومه يلعنونه، وسماه نساء قومه عرف النار[١] وهو اسم للغادر عندهم.

وحينما قدم الأشعث وأسرى قومه إلى المدينة أكثر من توبيخه الصديق - رضي الله عنه - على إيثار الردة على الإسلام وقال له: (كيف ترى صنع الله بمن نقض عهد الله، فقال الأشعث أرى أنه قد أخطأ حظه ونفس جده) ثم عفا عنه الصديق وأطلق سراحه من الأسر، ولكن الصديق - رضي الله عنه - ندم بعد ذلك وتمنى لو أنه حينما جيء بالأشعث إليه قتله[٢].

وحسن فيما بعد ذلك إسلام الأشعث، وشهد فتح القادسية والمدائن وجلولا ونهاوند واختط بالكوفة دارًا وكان مسموع الكلمة في العراق، ويقال إنه كان سيدًا على أربعين ألفًا من المنضمين إليه من أهل حضرموت

(١) بهذه المناسبة نقول: ما كان أحوج صاحب الفضيلة الشيخ أحمد محمد شاكر إلى مراجعة ابن جرير وابن الأثير قبل أن يخط فضيلته ما كتبه تعليقًا على ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية الإنكليزية التي ترجمت حديثًا إلى اللغة العربية، فقد استغرب ما ذكرته دائرة المعارف عن السمة التي كان يدعوه بها نساء قومه، مستندًا في استغرابه إلى عدد وافر من المصادر التاريخية وأنها لم يرد فيها ذكر السمة ولو رجع فضيلته لابن جرير وابن الأثير لكان لاستدراكه وجهة غير الوجهة أي استدرك بها في كلمته التعليقية.

(٢) ذكر المؤرخون أن الصديق - رضي الله عنه - قال ما آسى إلا على ثلاث صنعتها وليتني لم أكن صنعتها وثلاث لم أصنعها ليتني كنت صنعتها وثلاثًا ليتني كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها فأما الثلاث التي تمنى أن لو كان فعلها منها قوله في الأشعث بن قيس، ليتني حينما جيء إلي بالأشعث أمرت بضرب عنقه فإنه لا يرى شيئًا من الشر إلا وأعان عليه.

المهاجرين، ومن أهل اليمن. وقد شهد الأشعث صفين وله موقف في تحكيم الحكمين يعرفه التاريخ، هو إلى الفتنة أقرب منه إلى حسم الفتنة والنزاع، وفي موقفه بصفين يقول:

ميعادنا اليوم بياض الصبح دنوا إلي القوم بطعن سمح
حسبي من الأقدام قيد رمح

ومن شعره الذي يدل على ندمه لإيثاره الردة على الإسلام قوله:

لعمري وما عمري علي بهين لقد كنت بالإخوان جد ضنين
أحاذر أن تضرب هناك رؤوسهم وما الدهر يومًا عندها بأمين
فليت جنون الناس تحت جنونهم ولم ترم أنثى بعدها بجنين
وكنت كذات البو أنحت وأقبلت عليه بقلب واله وحنين[1]

(١) وقد أجابه أبو مسلم بن صبيح السكوني على أبياته بهذه الأبيات:
جزى الأشعث الكندي بالغدر ربه جزاء مليم في الأمور ظنين
أخا فجرة لا تستقال وغدرة لها أخوات مثلها ستكون